

الدين .. والأجل
(٦)

رسول الله ..
والقلوب المريضة

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يكشف بعض المؤامرات التي حيكت للانحراف بالصورة المقدسة الجميلة لرسول الله ﷺ والتي أمرنا بأن نقتدي بها، ونجعلها مثلنا الأعلى.

ذلك أنه تسلل إلى تراثنا، وخاصة كتب الحديث ما يجعل من رسول الله ﷺ شخصا مختلفا تماما عن الشخص الذي صوره القرآن الكريم، وصورته السنة النبوية الصحيحة.

وقد قام بهذه الوظيفة التشويهية الخطيرة أصحاب القلوب المريضة، الذين ذكر القرآن الكريم وجودهم في عهد رسول الله ﷺ، وبين مواقفهم المختلفة من الحقائق والمعجزات الباهرات التي كانوا يرونها رأي العين.. لكنهم لسقمهم لا يبصرونها، لأن عيونهم الممتلئة بالعمش، وأنوفهم المزكومة تحول بينهم وبين إدراك الحقائق كما هي.

والمشكلة التي حصلت بعد ذلك هي تصورنا أن هذا الصنف من الناس قد زال بمجرد وفاة رسول الله ﷺ .. ومن هذه الثغرة الأمنية الخطيرة تسلل هؤلاء ليشوهوا المعاني السامية للدين، فيحولوا سماحته عنفا، وسلامه حربا، وصفاءه كدورة، وسعيه لتحقيق كل القيم النبيلة إلى سعي لحربها والتنفير منها، وقد أعانهم على ذلك انقطاع الوحي الذي كان يكشف خططهم، ويحذر من مؤامراتهم.

الدين.. والدجل
(6)

رسول الله ..

والقلوب المريضة

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية
1437 – 2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

دعاء

إليك يا سيدي يا رسول اللـه .. يـا منبـع الأنـوار القدسية، والحقـائق العلويـة .. يـا مشـرق الحكمـة العلمية والعمليـة .. يـا رحمـة اللـه للعـالمين.. نمـد أيدينا خاضـعين متـذللين، نسـألك ونتوسـل بـك إلى الله .. يا من جعلك الله بابا من أبواب لطفه، وعينـا من عيـون رحمتـه .. أن تأخـذ بأيـدينا لتخرجنـا من أوهـام السـنة المذهبيـة، لـتزج بنـا في بحـار أنـوار السنة النبوية، فنعرفك حق معرفتك، ونقـدرك حـق قـدرك، ونلـتزم بسـنتك الـتي تـدعونا إلى المحبـة والسلام والتسامح، ونبتعد عن السـنة الـتي نسـبت إليك زورا وبهتانا، والـتي تـدعو إلى البغض والعنـف والإرهاب.. حـتى نلقـاك يـا رسـول اللـه وأنت راض عنـا، لتسـقينا بيـدك الشـريفة المقدسـة شـربة من كوثر الحقائق الأزلية لا نظمأ بعدها أبدا.

مقدمة

من أخطـر أنـواع القلـوب الـتي حـدثنا القـرآن الكـريم عنهـا (القلب المريض)، وهو قلب يستقبل الحقائق كسائر القلوب، لكنه لا يسـتقبلها كمـا هي في الواقـع، بـل يمزجهـا بأهوائـه وأمراضـه ونفسه، فلذلك يعبر عنها إذا ما أتيح له ذلك بلغـة مريضـة سـقيمة ممتلئة بالكدورة.

وقد ذكر القرآن الكـريم وجـود هـذا الصـنف من القلـوب في عهـد رسـول اللـه ﷺ، وبين مـواقفهم المختلفـة من الحقـائق والمعجـزات البـاهرات الـتي كـانوا يرونهـا رأي العين.. لكنهم لسـقمهم لا يبصـرونها، لأن عيـونهم الممتلئـة بـالعمش، وأنـوفهم المزكومـة تحـول بينهم وبين إدراك الحقـائق كمـا هي، كمـا قـال المتنبي:

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجدْ مُرّاً بهِ المَاءَ الزُّلالا

ومن الأمثلة على ذلـك مـا ذكـره القـرآن الكـريم من موقـف أصحاب هذه القلوب من تنزل السور القرآنيـة الممتلئـة بالمعـاني السامية، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَـزَادَتْهُمْ رِجْسًـا إِلَى رِجْسِـهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)﴾ [التوبة: 124، 125]

فالسـورة المنزلـة واحـدة.. ولكنهـا تختلـف في اسـتقبالها بحسـب جهـاز الاسـتقبال، فأمـا المؤمنـون الطـاهرون أصـحاب القلوب السامية النقية فتزيـدهم تلـك السـورة إيمانـا، وتعـرج بهم في آفـاق الـروح، ليصـحبوا الملأ الأعلى.. بينمـا تـنزل بأصـحاب القلـوب المريضـة إلى الـدركات السـفلى، وتزيـدهم رجسـا إلى رجسهم.

وهي في ذلك مثل المطر النـازل من السـماء، فإنـه إذا نـزل على الزهـور الطيبـة زادهـا طيبـا، وملأ الأجـواء من حولهـا بعبقهـا الجميل، لكنه إذا ما نزل على المستنقعات ملأ الأجـواء من حولهـا برائحتها الكريهة.

ومثل ذلك ما أخبر به القرآن الكريم عن المواقـف المختلفـة من عدد الملائكة الموكلين بجهنم، والذي وجد قبولا وطمأنينـة من المؤمنين، ووجد شـكا وريبـة من الكـافرين ومن أصـحاب القلـوب المريضة، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْـتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ وَيَـزْدَادَ

الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلًا كَـذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31]

والقرآن الكريم يرسم لنا صورا كثيرة عن معاناة رسول الله ﷺ مـع هـذه الأنـواع من القلـوب، ومن ذلـك مـواقفهم في صـد الهجومات التي كان يتعـرض لهـا المسـلمون كـل حين من طـرف أعدائهم، قال تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ يُسَـارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْـرٍ مِنْ عِنْـدِهِ فَيُصْـبِحُوا عَلَى مَـا أَسَـرُّوا فِي أَنْفُسِـهِمْ نَـادِمِينَ ﴾ [المائدة: 52]

قـد يكـون مـا ذكرنـاه هنـا من المتفـق عليـه بين المسـلمين جميعا، لكن المشكلة هي تصـورنا أن هـذا الصـنف من النـاس قـد زال بمجرد وفاة رسول الله ﷺ.. فبعد وفاته مباشـرة ــ كمـا ينص أصـحاب السـنة المذهبيـة ــ تحـول النـاس بجميـع أصـنافهم إلى مؤمنين طيبين ممتلـئين بالعدالـة.. ولـذلك يمكننـا أن نأخـذ الـدين والقــرآن والهــدي الإلهي من أي كــان من دون أن نعرضــه على الحقـائق السـامية الناصـعة الـتي جـاء الـدين للـدعوة إليهـا عملا واعتقادا.

ومن هـذه الثغـرة الأمنيـة الخطـيرة تسـلل أصـحاب القلـوب المريضة ليشوهوا المعاني السامية للدين، فيحولوا سماحته عنفـا، وسلامه حربا، وصفاءه كـدورة، وسـعيه لتحقيـق كـل القيم النبيلـة إلى سعي لحربهـا والتنفـير منهـا، وقـد أعـانهم على ذلـك انقطـاع الوحي الذي كان يكشف خططهم، ويحذر من مؤامراتهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الدور الذي يقوم به أمثال هؤلاء في تحريـف الـدين انطلاقـا من مصـادره المقدسـة، فقـال: ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّـيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّـيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِـهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ وَالْقَاسِـيَةِ قُلُـوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِـقَاقٍ بَعِيـدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِـهِ فَتُخْبِتَ لَـهُ قُلُـوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَـادِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَـأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)﴾ [الحج: 52 - 55]

فهـذه الآيـات الكريمـة ــ والـتي طـال معناهـا التحريـف هي الأخرى ـ تبين أن الشياطين يستعينون بأصحاب القلـوب المريضـة لتحريـف الـوحي الإلهي عن مقاصـده السـامية، لكن الـذين أوتـوا العلم يقفون بالمرصاد في وجـه هـذه القلـوب، والتحريفـات الـتي جاءت بها.

انطلاقا من هذه المعـاني نحـاول ــ ببعض الجـرأة ــ في هـذا الكتــاب أن نكشــف بعض المــؤامرات الــتي حيكت للانحــراف بالصورة المقدسة الجميلة لرسول الله ﷺ والتي أمرنا بأن نقتـدي بها ونجعلها مثلنا الأعلى.

فقـد تسـلل إلى تراثنـا وخاصـة كتب الحـديث مـا يجعـل من رسول اللـه ﷺ شخصـا مختلفـا تمامـا عن الشـخص الـذي صـوره القرآن الكريم، وصورته السنة النبوية الصحيحة.

ولــذلك نحن لا ننكــر بعض مــا ورد في الســنة كمــا يــدعي المرجفـون، وإنمـا نقـارن مـا ورد في السـنة بمـا ورد في القـرآن الكريم.. فإن وافقته، فبها، وإلا ضربنا بها عرض الجدار.

بــل إننــا لا نكتفي بعرضــها على القــرآن الكــريم فقــط، بــل نعرضها على السنن النبوية الأخرى.. والتي هي أكثر صحة، ومحـل اتفاق من الأمة جميعا.

وما نفعله في هذه المجال هـو نفس مـا يفعلـه الفقهـاء عنـد تعارض النصوص، فيرجحون ما دلت عليه الأدلة القطعيـة على مـا دلت عليه الأدلة الظنية، حتى لو كـان الـدليل الـذي يردونـه حـديثا في البخاري أو في مسلم أو في غيرهما من مصادر السنة.

وقـد ضـرب جمـال الـدين القاسـمي ــ في تـبريره لانتقـاده الشـديد لحـديث سـحر النـبي ﷺ ـ الأمثلـة على ذلـك من فعـل السلف الذين يعتمدهم أصحاب السنة المذهبية، فنقـل عن الإمـام الغزالي قوله في (المستصفى): (ما من أحد من الصحابة إلا وقــد ردّ خبر الواحد. كردّ عليّ خبر أبي سنان الأشجعي في قصة (بروع بنت واشق) وقد ظهـر منـه أنـه كـان يحلـف على الحـديث. وكـردّ عائشة خبر ابن عمر في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه. وظهر من عمر نهيه لأبي موسى وأبي هريرة عن الحديث)[1]

ونقل عن ابن تيمية في (المسـوّدة) قولـه: (الصـواب أن من ردّ الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده، لاعتقاده غلط الناقل أو كذبه، لاعتقـاد الـرادّ أن الـدليل قـد دل على أن الرسـول لا يقـول

---

[1] محاسن التأويل: 9/ 578.

هذا، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق، وإن لم يكن اعتقاده مطابقا، فقد ردّ غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبـار الـتي هي صـحيحة عند أهل الحديث)[1]

ونقـل عن العلامـة الفنـاري في (فصـول البـدائع) قولـه: (ولا يضلل جاحد الآحاد)

ثم قال تعقيبا على ذلك كله: (والمسألة معروفة في الأصول، وإنما توسعت في نقولهـا لأني رأيت من متعصـبة أهـل الـرأي من أكبر رد خبر رواه مثل البخاري، وضلل منكره، فعلمت أن هـذا من الجهل بفن الأصول، لا بل بأصول مذهبه. كمـا رأيت عن الفنـاري. ثم قلت: العهد بأهل الرأي أن لا يقيمـوا للبخـاري وزنـا. وقـد ردوا المئين من مروياته بالتأويل والنسخ، فمتى صـادقوه حـتى يضـللوا من ردّ خبرا فيه؟)[2]

ومن الأمثلـة الواضـحة على ذلـك موقـف الإمـام مالـك من الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام أن رسـول الله ﷺ قال: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينـا بـورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)

والذي يدل بصيغة قطعيـة على أن لكـل من المتبـايعين حـق إمضاء العقد أو إلغائه ماداما لم يتفرقا بالأبدان.

وقد ورد ما يؤكد هذا من السنن الأخـرى، فقـد روى الـبيهقي عن عبد الله بن عمر قال: (بعت من أمـير المؤمـنين عثمـان مـالاً بالوادي بمال له بخيبر، فلما تبايعنا رجعت على عقبي حتى خرجت من بيته خشية أن يردني البيع، وكانت السنة أن المتبايعين بالخيار حتى يتفرقا)

وقد ذهب إلى هذا جمـاهير العلمـاء من الصـحابة والتـابعين.. لكن الإمام مالك خالف ذلك، ورد الحـديث حـتى نقـل عن ابن أبي ذئب –وهو من كبـــار علمـــاء المدينة - أنه لما ذكر له أن مالكا لم يعمل به، قال: (يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه)[3]

بل أكد موقفه هذا الإمام أحمد نفسـه حيث قـال عن ابن أبي ذئب: (هو أورع وأقول بالحق من مالك) [4]

---

[1] محاسن التأويل : 9/ 578.

[2] محاسن التأويل: 9/ 578.

[3] سير أعلام النبلاء: 1/ 49.

[4] سير أعلام النبلاء:1/ 49.

لكن مع ذلك نجد العلماء جميعا يعتذرون لمالك، ويقفون منه موقفا طيبا، بل يبررون قوله.

والمالكية إلى الآن لا زالوا يأخذون بقوله في المسألة، ولا يأخذون بالحديث الوارد في صحيحي البخاري ومسلم.

بل إن الذهبي ـ مع تشدده مع أي ناقد أوصله الدليل إلى خلاف ما في كتب الحديث ـ يعتذر لمالك، ويرد على الناقدين له، ويقول في رده على الإمام أحمد، وموقفه من ابن أبي ذئب: (لو كان ورعا كما ينبغي، لما قال هذا الكلام القبيح في حق إمام عظيم، فمالك إنما لم يعمل بظاهر الحديث، لأنه رآه منسوخا، وقيل:عمل به، وحمل قوله: حتى يتفرقا، على التلفظ بالإيجاب والقبول، فمالك في هذا الحديث، وفي كل حديث له أجر ولابد، فإن أصاب ازداد أجرا آخر، وإنما يرى السيف على من أخطأ في اجتهاده الحرورية، وبكل حال فكلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول على كثير منه، فلا نقصت جلالة مالك بقول ابن أبي ذئب فيه، ولاضعف العلماء ابن أبي ذئب بمقالته هذه، بل هما عالما المدينة في زمانهما) [1]

وهذا الذي قاله الذهبي طيب جدا، ودليل على روح التسامح مع الخلاف، لكن ليته عمم هذا مع كل منكر لحديث لا يرى انسجامه مع الدين، أو مع القيم النبيلة التي جاء بها.

ولذلك ندعو الحريصين على السنة المطهرة ألا يتشنجوا عندما نرد حديثا في البخاري أو في مسلم أو في غيرهما، لأن أصحابها ــ أولا ــ لم ينزلوها منزلة كتاب الله من حيث العصمة والقبول المطلق، وـ ثانيا ـ نحن لا نرفض بعض ما فيها لذاته، وإنما نرفضه لعدم انسجامه وتوافقه مع نصوص أكثر صحة، وأعلى مرتبة، وأولها القرآن الكريم.

ونحن نستغرب من الذي يعتذر لمالك ويجتهد في نصرته حتى لو كان ذلك على حساب ما اتفق عليه البخاري ومسلم، وفي قضية فرعية جدا، ومع ذلك يتشنج، بل يرمي بالكفرة والزندقة من يرد بعض الأحاديث التي تشوه صورة رسول ﷺ، وتنسخ تلك الصورة الجميلة التي صوره بها القرآن الكريم، وصورته بها الكثير من الأحاديث النبوية المتفق على صحتها.

ونحب في هذا المحل أيضا أن ننكر نكيرا شديدا على من يتجرأ على كتب الحديث بمدارسها المختلفة .. كصحيحي البخاري

[1]) سير أعلام النبلاء: 1/ 49.

ومسلم وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرها من كتب الحديث في المدرسة السنية.. أو كتاب الكافي في الأصول والفروع للكليني، أو تهذيب الأحكام والاستبصار للطوسي، أو من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.. وغيرها من كتب الحديث في المدرسة الشيعية.. أو مسند الربيع بن حبيب في المدرسة الإباضية.

فكتب الحديث هي المحال التي جمع فيها الحديث بصحيحه وضعيفه وموضوعه، ولذلك من الخطأ الكبير أن نسب مصدرا كاملا للحديث بسبب بعض الأحاديث المردودة فيه.. بل لو لم يصح من كتاب كامل إلا حديث واحد لكان من الأدب مع رسول الله ﷺ أن نحترم ذلك الكتاب.

لهذا فإني ــ مع ردي بعض الأحاديث الواردة في المصادر الحديثية المختلفة ـ لا أرد الأحاديث مع اعتقادي أن رسول الله ﷺ قالها أو فعلها .. فذلك عين الضلال، بل عين الكفر، فمن يتجرأ على تكذيب رسول الله ﷺ لا يبقى له من الإسلام شيء.

ومثل ذلك فإني لا أتهم الصحابي الذي روى الحديث، لأن الحديث لم نسمعه من الصحابة مباشرة، وإنما ورد إلينا عن طريق طويل قد يختلط فيه الحابل بالنابل، والمحق من المبطل.

ومثل ذلك لا أتهم صاحب الكتاب الذي ورد فيه الحديث، لأن أكثر المحدثين كانوا يجمعون الأحاديث، ويتركون المواقف منها ومن فهمها للفقهاء والمفسرين وغيرهم، كما قال ﷺ: (نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه)[1]

ومثل ذلك لا أتهم أي راو من الرواة بأنه هو من وضع الحديث لأن ذلك غيب .. والله أعلم به.

كل الذي أفعله هو أني أقارن الحديث بالصورة التي وردت في القرآن الكريم حول رسول الله ﷺ، وورد مثلها في الأحاديث الكثيرة، وفوق ذلك تؤيدها الفطرة الصافية والعقل السليم. فإن وجدت الحديث موافقا لها، قلت به، وصدقته حتى لو كان راويه متهما بالضعف.. وكل حديث مخالف لذلك أنكرته ونقدته حتى لو كان الراوي قد وثق من الجميع..

لأني أعتقد أنه من الصعوبة، بل من المحال التوثيق المطلق والتضعيف المطلق لأي راو، فقد قال تعالى لرسول الله ﷺ في

---

[1]) رواه أبو داود.

شأن المنافقين: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: 101]، فإن كان رسول الله ﷺ يخفى عليه ـ بحسب الآية الكريمة ــ بعض المنافقين، فكيف لا يخفى على ابن معين أو ابن أبي حاتم أو البخاري بعض أصحاب القلوب المريضة الذين تسللوا لكتب الحديث ليجعلوها وسيلة لتشويه رسول الله ﷺ، وتحريف الدين.

بعد هذا قد يقول قائل: لم الاصطياد في المياه العكرة؟ ولم الحديث في الأمور المتشابهة؟ ولم التصدي لما يثير الفتنة؟

والجواب لكل من يقدر رسول الله ﷺ حق قدره بسيط، ذلك أن قطرة واحدة من السم يمكنها أن تحول من الطعام اللذيذ سما قاتلا.. والسكوت على من وضع تلك القطرة بحجة صغر حجمها سكوت على من يسمم الناس ويقتلهم.

وهكذا الأمر بالنسبة للسنة المطهرة.. فقد دست بعض الأحاديث في جوانب مختلفة لتشوه صورة رسول الله ﷺ.. وحديث واحد منها يمكنه أن يحطم تلك الصورة الجميلة ليحولها إلى الجهة المعاكسة تماما.

ونحن في حياتنا، وفي علاقاتنا المختلفة نمارس هذا، فنحن قد نصطدم مع بعض الناس، بل نهجرهم هجرا تاما لشيء فعلوه، أو موقف وقفوه حتى لو كان محدودا جدا وبسيطا جدا، لكننا نلغي به كل حسنات من فعل ذلك الفعل، أو وقف ذلك الموقف.

وهكذا فعل المتسللون من أصحاب القلوب المريضة عندما أرادوا أن يشوهوا صورته ﷺ، فقد وضعوا بعض الأحاديث في كل مجال من المجالات لينسخوا بها كل الكمالات والجمالات تماما مثلما فعلوا مع القرآن الكريم حين نسخوا بآية السيف كل آيات الرحمة والسماحة والسلام..

ومثلما رددنا على أولئك في كتابنا (القرآن .. والأيدي الآثمة)، نرد على هؤلاء في كتابنا هذا (رسول الله .. والقلوب المريضة)، ونرد عليهم في كتابنا الآخر (المدارس السلفية .. والوثنية المقدسة)

رسول الله .. والعصمة

من أهم ما يميز الذين يصطفيهم الله للوساطة بينه وبين خلقه عن غيرهم من الناس (العصمة)، لأنها تعني الصفاء التام للمعدن الذي يتلقى عن الله، ويكون واسطة بينه وبين خلقه.. ولذلك ورد في النصوص المقدسة الدعوة المطلقة للاهتداء بهديهم.. وفي كل أحوالهم، كما قال تعالى بعد ذكره لبعض أسماء الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: 90]

وهكذا أمرنا الله تعالى بأن نلتزم كل شيء من رسول الله ﷺ التزاما مطلقا، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21]

وورد في السنة النبوية المطهرة توضيح لهذه الحقيقة العظيمة، إلى الدرجة التعبير بأن رسول الله ﷺ هو نفسه القرآن الكريم.. وليس هناك من فرق بينهما إلا أن أحدهما صامت والآخر ناطق.

وكما أن القرآن الكريم محفوظ من التحريف، ومحفوظ من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكذلك رسول الله ﷺ محفوظ ومعصوم عصمة مطلقة، فلا يصدر عنه إلا الكمال المحض..

بل إن رسول الله ﷺ، ومثله سائر الأنبياء، والمصطفين يحلقون في عوالم من الكمال لا يمكن تقدير قدرها.. ولذلك نحن لا نرى منهم إلا ظلالا باهتة حقيرة بجنب حقيقتهم العظيمة..

ويكفي تصور وظيفتهم لتندك عروش عقولنا.. فهؤلاء ليسوا سفراء أمريكا ولا روسيا .. بل هم سفراء الله الذين خلق كل شيء.. والذين اختارهم من بين خلقه جميعا ليعرفوا الخلق به، وبمواضع رضاه.

ولذلك من الاحتقار لله أن نتهمه في اختياره.. وأن نعتبر اختياره اعتباطا، وأن نعتبر أنفسنا أكثر حكمة وصوابية حين نختار.

وهذا للأسف ما وقعت فيه السنة المذهبية ـ شعرت أو لم تشعر ـ حين احتقرت العصمة، وقزمتها، واختصرتها في مواضع قليلة محددة، تغليبا لبشرية الرسول على نبوته.. مع أن نبوة الرسول أي رسول هي المتغلبة على بشريته..

ولذلك كـان ﷺ لا يحن للطعـام والشـراب كحنينـا، فقـد كـان يواصل، ويقول: (أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني)[1]

وكان لا تعتريه الغفلة أبدا عن ذكر الله.. بل كـان ــ كمـا ورد في الروايـات الكثـيرة ــ تنـام عينـاه ولا ينـام قلبـه، فقـد روي أن جماعة من اليهود لمّـا قـدم النـبي ﷺ المدينـة سـألوه، فقـالوا: يـا محمد كيف نومك، فقد أخبرنا عن نوم النـبي الـذي يـأتي في آخـر الزمان؟ فقـال ﷺ: (تنـام عيـني، وقلـبي يقظـان)[2] .. ولـذلك من الخطأ الكبير أن نتهم من هذا حاله بالسهو أو النسيان أو الغفلة.

أمـا طاعتـه للـه، فهي سـكن قلبـه، وروح روحـه، وسـعادته المطلقة.. فقد كان ﷺ ـ كما ورد في السنة النبوية ــ يقـول لبلال: (أرحنا بها يا بلال)[3]، وكان يعتبر الصلاة قرة عينه[4] ..

وكان فوق ذلك أقرب الخلـق إلى اللـه، وأعلم الخلـق باللـه، وبأمر الله، وبكون الله، فلذلك من الخطأ الكبير أن نتهمه بالجهـل أو الغفلة أو الخطأ أو أي لون من هذا القبيل.

وهكـذا، فـإن العقـل والنقـل يـدلان على الطهـارة المطلقـة للمصـطفى من اللـه للوسـاطة بينـه وبين خلقـه، لأنـه لـو لم يكن كـذلك لكـان ذلـك حـائلا بينـه وبين القـدرة على التلقي من الملأ الأعلى، فتلـك القـدرة تحتـاج إلى مـرآة صـافية ممتلئـة بالطهـارة والقدسـية حـتى لا تختلـط الحقـائق المقدسـة بـأهواء النفـوس ودنسـها، كمـا قـال تعـالى: ﴿كَلَّا بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُـوبِهِمْ مَـا كَـانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: 14]

وقد فسر ﷺ الآية بقوله: (إن العبد إذا أذنب ذنبـاً كـانت نكتـة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت)[5]

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أحمد وأبو داود.

4) أمـا تلـك الزيـادة الـواردة: (حبب إلي من دنيـاكم النسـاء)، فـأرى أنهـا موضوعة، فرسول الله ﷺ هو سيد الزاهـدين، وأعظم الزهـد الزهـد في هـذا الجانب، وقد طبقه رسول الله ﷺ في أحسن صوره كما شرحنا ذلك بتفصـيل في كتاب [النبي المعصوم]

5) رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

انطلاقا من هذه الحقائق نحب أن نرى هنا باختصــار الصــورة التي يحملها أهل القلوب المريضة عن النبوة، وكيف نزلوا بهــا إلى الدركات السفلى، حتى تصوروا أن النبي ليس سوى ســاعي بريــد لم يكن له من دور إلا تبليغ رسالة ربه.

وسنقتصر على علم من أعلام السنة المذهبيــة لــنرى موقفــه من النبوة، ثم كيف سرى ذلك إلى الموقف من النبي نفسه.

وهذا العلم هو شيخ الإسلام البشري، وحافظ السنة المذهبية (ابن تيمية)، والذي يعتبره التيار السلفي والحـركي موجهـا وإمامـا ومرجعا عند الخلاف.

ومن أول ما يدل على هــذا الموقــف الســلبي من النبــوة هــو ثناؤه على كل الكتب التي تمتلئ بالقصص والأساطير التي تشـــوه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وترميهم بالعظائم، بل هو فوق ذلــك يعتبرها من كتب الســنة، وأنهــا في هــذا الموضــوع بالــذات أعــرف بالأنبياء من كتب المنزهة.

ومن أقوالــه في هــذا: (.. من أئمـــة أهـــل التفســير، الـــذين ينقلونها بالأســانيد المعروفــة، كتفســير ابن جــريج، وســعيد بن أبي عروبة، وعبد الرزاق، وعبــد بن حميــد، وأحمــد، وإســحاق وتفســير بقي بن مخلــد وابن جريــر الطــبري، ومحمــد بن أســلم الطوســي، وابن أبي حاتم، وأبي بكر بن المنذر، وغيرهم من العلمــاء الأكــابر، الـــذين لهم في الإســـلام لســـان صـــدق، وتفاســـيرهم متضـــمنة للمنقولات التي يعتمد عليها في التفسير)[1]

وقــال ــ دفاعــا عن الإســرائيليات الكثــيرة الــواردة في تلــك الكتب، والتي شوهت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيما تشويه ـــ: (ولهذا كان السلف من الصـحابة والتـابعين لهم بإحسـان وغـيرهم من أئمة المسلمين متفقين على ما دل عليــه الكتــاب والســنة من أحوال الأنبياء، لا يعرف عن أحد منهم القول بما أحدثتــه المعتزلــة والرافضة ومن تبعهم في هذا البــاب، بــل كتب التفســير والحــديث والآثار والزهد وأخبار السلف مشحونة عن الصحابة والتابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرف الآيات كتحريف هـــؤلاء، ولا من كذب بمــا في الأحــاديث كتكــذيب هــؤلاء، ولا من قــال هــذا يمنع الوثوق، أو يوجب التنفير ونحو ذلك كما قال هؤلاء، بل أقــوال هؤلاء الذين غلوا بجهل من الأقوال المبتدعة في الإسلام)[2]

فهو في هذا النص يعتبر الروايات المشــوهة لجمــال وعصــمة

[1]) منهاج السنة النبوية (7/ 179)

الأنبياء سنة، ويعتبر تنزيه الأنبياء والقـول بطهـارتهم تحريفـا.. ولـه الحق في ذلك، فالسنة التي يقصدها هي السنة المذهبية، لا السنة النبوية.

بل إن ابن تيمية ـ نتيجة سوء فهمه للنبوة ـ لا يـرى المعصـية قادحا في كمال الأنبياء، وفي استحقاقهم للوظائف الخطيرة الـتي كلفـوا بهـا، يقـول في ذلـك – أثنـاء رده على المنزهـة -: (ونكتـة أمرهم أنهم ظنوا وقوع ذلك من الأنبيـاء والأئمـة نقصـا، وأن ذلـك يجب تنزيههم عنه، وهم مخطئون إما في هذه المقدمـة، وإمـا في هذه المقدمة.. أما المقدمة الأولى فليس من تاب إلى الله تعـالى وأنـاب إليـه بحيث صـار بعـد التوبـة أعلى درجـة ممـا كـان قبلهـا منقوصا ولا مغضوضـا منـه، بـل هـذا مفضـل عظيم مكـرم، وبهـذا ينحل جميع ما يوردونه من الشبه، وإذا عرف أن أولياء اللـه يكـون الرجـل منهم قـد أسـلم بعـد كفـره وآمن بعـد نفاقـه وأطـاع بعـد معصـيته، كمـا كـان أفضـل أوليـاء اللـه من هـذه الأمـة - وهم السابقون الأولون - يبين صحة هذا الأصل)[1]

ومن خلال هذا النص يتبين لنـا الـدافع الـذي جعـل ابن تيميـة يحطم كل تلك المكانـة الرفيعـة الـتي نالهـا الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام في قلوب الناس بسبب طهارتهم وعصمتهم، وهو مبالغته في شأن الصحابة.. فهو لا يريد أن يتهمهم الناس بالنقص لكـونهم أسـلموا بعـد كفـر، وأطـاعوا بعـد معصـية، فلم يجـد إلا أن يلحـق الأنبياء بهم.

بل إن الأمر بلغ به إلى المماراة في القطعيات، فيحاول بكـل الوسائل أن يقنع أتباعه بدور المعصية في تحقيق الكمال.

يقـول في ذلـك: (والإنسـان ينتقـل من نقص إلى كمـال، فلا ينظر إلى نقص البدايـة، ولكن ينظـر إلى كمـال النهايـة، فلا يعـاب الإنسان بكونه كان نطفة ثم صـار علقـة ثم صـار مضـغة، إذا كـان الله بعد ذلك خلقـه في أحسـن تقـويم.. فمن يجعـل التـائب الـذي اجتباه الله وهداه منقوصا بما كان من الذنب الذي تاب منـه، وقـد صار بعد التوبة خيرا مما كان قبـل التوبـة، فهـو جاهـل بـدين اللـه تعالى ومـا بعث اللـه بـه رسـوله، وإذا لم يكن في ذلـك نقص مـع وجود ما ذكر فجميع ما يذكرونه هو مبني على أن ذلك نقص، وهـو

---

[2]) منهاج السنة النبوية (2/ 434)

[1]) منهاج السنة النبوية (2/ 430)

نقص إذا لم يتب منـه، أو هـو نقص عمن سـاواه إذا لم يصـر بعـد التوبة مثله، فأما إذا تاب توبـة محت أثـره بالكليـة وبـدلت سـيئاته حسـنات فلا نقص فيـه بالنسـبة إلى حالـه، وإذا صـار بعـد التوبـة أفضل ممن يساويه أو مثله لم يكن ناقصا عنه)[1]

بل إنه فوق ذلك كله يعتبر تنزيـه الأنبيـاء عن المعاصـي غضـا من مرتبتهم، وسلبا للدرجة الـتي أعطـاهم اللـه، يقـول في ذلـك: (وجوب كون النبي لا يتوب إلى الله فينال محبة الله وفرحه بتوبته وترتفع درجته بذلك ويكون بعد التوبة التي يحبه الله منه خيرا ممـا كان قبلها فهذا مع ما فيـه من التكـذيب للكتـاب والسـنة غض من مناصـب الأنبيـاء وسـلبهم هـذه الدرجـة ومنـع إحسـان اللـه إليهم وتفضله عليهم بالرحمة والمغفرة)[2]

وهو يعود ليستدل بالصحابة الذين من أجلهم شوه الأنبياء، بل شوه رسول اللـه ﷺ نفسـه ليحفـظ مكـانتهم الـتي يتصـورها لهم، يقول في ذلك: (ومن اعتقد أن كل من لم يكفر ولم يذنب أفضــل من كل من آمن بعد كفره وتـاب بعـد ذنبـه، فهـو مخـالف مـا علم بالإضطرار من دين الإسلام! فإنه من المعلوم أن الصـحابة الـذين آمنوا برسول الله ﷺ بعـد كفـرهم وهـداهم اللـه بـه بعـد ضـلالهم، وتابوا إلى الله بعـد ذنـوبهم أفضـل من أولادهم الـذين ولـدوا على الإسـلام، وهـل يشـبه بـني الأنصـار بالأنصـار، أو بـني المهـاجرين بالمهاجرين إلا من لا علم له)[3]

وقـد بلـغ من احتقـار ابن تيميـة للنبـوة أنـه جـوز الكفـر على الأنبياء، وقد قدم لذلك بمقدمة عقدية تصـور أنهـا كافيـة، وهي أن الله يفعـل مـا يشـاء، وبالتـالي يمكنـه أن يختـار أي كـافر، بـل أي مجرم ليتولى هذا المنصب الخطير، يقول في ذلـك: (وممـا يـبين الكلام في مسألة العصمة أن تعـرف النبـوة ولوازمهـا وشـروطها، فإن الناس تكلموا في ذلك بحسب أصولهم في أفعال اللـه تعـالى إذا كان جعل الشخص نبياً رسولاً من أفعال اللـه تعـالى فمن نفى الحِكَم والأسباب في أفعاله وجعلها معلقةً بمحض المشيئة، وجــوَّز عليه فعل كـل ممكن، ولم ينزهـه عن فعـل من الأفعـال، كمـا هـو قول الجهم بن صـفوان وكثـير من النـاس كالأشـعري ومن وافقـه

[1] منهاج السنة النبوية (2/ 434)

[2] منهاج السنة النبوية (2/ 397)

[3] منهاج السنة النبوية (2/ 398)

من أهل الكلام من أتباع مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من مثبتة القدر، فهـؤلاء يجـوزون بعثـة كـل مكلـف! والنبـوة عنـدهم مجـرد إعلامه بما أوحاه إليه ! والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه ! والنبوة عندهم صفة ثبوتية ولامستلزمة لصفة يختص بهـا، بـل هي من الصــفات الإضــافية كمــا يقولــون، مثــل ذلــك في الأحكــام الشرعية)[1]

وكمثال عملي على ذلـك مـا ورد في (مجمـوع الفتـاوى) من قوله بكفر نبي الله شـعيب عليـه السـلام وغـيره من الأنبيـاء قبـل نبوتهم، وقد قدم لذلك بقوله: (هذا تفسـير آيـات أشـكلت حـتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها، ومنها قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـكَ مِنْ قَرْيَتِنَـا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88] الآية وما في معناها)[2]

ثم راح يـبرز قدراتـه الاسـتنباطية في هـذا الجـانب، فقـال: (التحقيق: أن الله سـبحانه إنمـا يصـطفي لرسـالته من كـان خيـار قومه حتى في النسب كما في حديث هرقـل. ومن نشـأ بين قـوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم إذا كان معروفا بالصدق والأمانة وفعل ما يعرفون وجوبه وترك ما يعرفون قبحه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـولًا﴾ [الإسـراء: 15]، فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب، وليس في هـذا مـا ينفـر عن القبول منهم؛ ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحـا. وقـد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جـاءت بـه الرسـل قبلـه من النبوة والشرائع، وأن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كـافر، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضـلا عن أن تقـر بـه.. قـال تعـالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: 15])[3]

ومثلما دافع عن المعصية، وكونها كمالا في حـق الأنبيـاء، راح يـدافع عن كفـرهم، مبينـا أن ذلـك أيضـا كمـال في حقهم، فقـال: (والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر كمـا

---

[1]) منهاج السنة:2/413.

[2]) مجموع الفتاوى (15/ 30)

[3]) مجموع الفتاوى (15/ 30)

كان نوح وإبراهيم)[1]

وهذا الموقف من ابن تيمية هو نفسه موقف تلاميذه من أهل السنة المذهبية، فقد قال مشهور صالح آل الشيخ في شرحه للطحاوية المسمى بـ (إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل): (القسم الثاني، من جهة الذنوب: الذنوب أقسام: فمنها الكفر وجائز في حق الأنبياء والرسل أنْ يكونوا على غير التوحيد قبل الرسالة والنبوة.. والثاني من جهة الذنوب، فالذنوب قسمان كبائر وصغائر: والكبائر جائزة فيما قبل النبوة، ممنوعة فيما بعد النبوة والرسالة؛ فليس في الرسل من اقترف كبيرة بعد النبوة والرسالة أو تَقَحَّمَها عليهم الصلاة والسلام بخلاف من أجاز ذلك من أهل البدع)[2]

وسئل هذا السؤال: (أشكل عليَّ قولك: النبي قد يكون على غير التوحيد قبل الرسالة؟)، فأجاب بقوله: (نعم النبي قد يكون على غير ذلك، فيصطفيه الله - عز وجل - وينبهه؛ يعني ما فيه مشكل في ذلك، قد يكون غافلا)[3]

بل إن ابن تيمية ومدرسته ينقلون من النصوص ما لا يستثني رسول الله ﷺ نفسه.. خاصة وأنهم مهدوا لذلك بكون الكمال في الكفر والمعصية السابقين.

ومن الأمثلة على ذلك حديث يردده ابن تيمية كثيرا يدل بظاهره على أن زيدا بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب كان أكثر ورعا عن الشرك وأسبابه من رسول الله ﷺ، فقد روى في (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) وغيره من كتبه أن رسول الله ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقدم إليه رسول الله ﷺ سفرة في لحم. فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: (إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه)[4]

بل يضيف إليها كل الروايات التي ورد بها الحديث ليؤكد المعنى، فيقول: (وفي رواية له: وإن زيد بن عمرو بن نفيل كان

---

[1]) مجموع الفتاوى (15/ 31)

[2]) شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ ، ص: 84.

[3]) شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ ، ص: 86.

[4]) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها اللــه، وأنــزل لهــا من الســماء المــاء، وأنبت لهــا من الأرض الكلأ، ثم أنتم تــذبحونها على غير اسم الله؟!) إنكارا لذلك وإعظاما له) [1]

وبذلك أصبح زيـد بن عمـرو بن نفيـل عم عمـر بن الخطـاب أكــثر عقلا وحكمــة وإيمانــا من رســول اللــه ﷺ .. وذلــك ليس بمستغرب لأن أساس الســنة المذهبيــة هــو تعظيم الصــحابة، ولــو على حساب رسول الله ﷺ.

ولو أننا تأملنــا مــا يطلــق عليــه موافقــات عمــر بن الخطــاب، ومبالغة أهل السنة المذهبية فيها[2]، لرأينا كيف يهــان رســول اللــه ﷺ، بل كيف يهان القــرآن الكــريم نفســه، والــذي يتوقــف نزولــه ـ حسب تلك الروايات ـ على الشدة التي يبديها عمــر في المطالبــة بنزول الأحكام كما يطلبها هو.. فتأتي كمــا يطلبهــا هــو.. بــل أحيانــا تأتي بنفس الصيغة التي نطق بها.. وذلك ما يثــير من الشــبه الــتي يتعلق بها المنكرون للنبوة ما لا يعلم به إلا الله.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في الروايــة أنــه قــال لرســول اللــه ﷺ: (يارســول اللــه لــو اتخــذت من مقــام إبــراهيم مصــلى)، فنزلت الآية بنفس الصيغة [3].

ومنها أنــه لمــا اجتمــع على رســول اللــه ﷺ نســاؤه مطــالبين بالنفقة، قال لهن عمــر: (عســى ربــه إن طلقكن أن يبدلــه أزواجــا خيرا منكن)، فنزلت كذلك[4].

والأخطر من ذلك كله تلك الرواية التي تــبين أن رســول اللــه ﷺ أخــبر أنــه كــان معرضــا للعــذاب بســببه اجتهــاده الخــاطئ في

---

[1]) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

[2]) فقد ألفت فيها المؤلفــات الكثــيرة، ومنهــا: نفــائس الــدرر في موافقــات عمر، لأبي بكر ابن زيد الدمشقي، وقطــف الثمــر في موافقــات عمــر: لجلال الــدين الســيوطي، ونظم الــدرر في موافقــات عمــر: لمحمــد بن إبــراهيم البلبيسي، والموافقات العمريــة للقــرآن الشــريف: لمحمــد بن جمــال الــدين، والــدر المســتطاب لموافقــات عمــر بن الخطــاب: لحامــد بن على العمــادي الدمشــقي، وضــم الــدرر في موافقــات عمــر: لبــدر الــدين محمــد بن محمــد الغــزي، واقتطــاف الثمــر في موافقــات عمــر: لابن البــدر الخطيب البعلي الدمشقي، والموافقات التي وقعت في القرآن لعمــر بن الخطــاب: أحمــد بن علي بن محمد المقدسي، وغيرها..

[3]) رواه البخاري.

[4]) رواه أحمد.

الأسرى.. وأنه لم يكن لينجو إلا عمر الذي نزل القرآن ـ بزعمهم ـ بموافقته[1].

وهكذا يصبح رسول الله ﷺ ـ بحسب السنة المذهبية ـ تلميـذا لأصحابه، لا أسـتاذا لهم.. بـل يصـبح القـرآن الكـريم نفسـه رهينـا للآراء والتوجهات التي تملى عليه.. تعالى رسول اللـه ﷺ والقـرآن الكريم عن ذلك علوا عظيما.

ولذلك لا عجب أن ينتفض أهل السـنة المذهبيـة إذا مـا انتقـد أي موقف من مواقف الصحابة، ويعتبرون المنتقد مبتدعا، بينمـا لا حرج على أي شخص، بل على أي صعلوك أن ينتقد رسول الله ﷺ ويبين خطأ اجتهـاده، لأن الرسـول في أذهـان هـؤلاء هم الصـحابة وليس رسول اللـه ﷺ.. بـل إن الرسـول الحقيقي عنـدهم هـو ابن تيمية نفسه.

وقد حدث الدكتور عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السـدحان في كتابـه (الإمـام ابن بـاز دروس وعـبر) تحت عنـوان (سـرعة استحضاره للأدلة)، فقال ــ يـذكر مجلسـا من مجـالس ابن بـاز ــ: (نقـل أحـدهم مقولـة عن بعض أهـل العلم مفادُهـا: (لـو لم نُخـبرَ بختام النبوة لقُلنا: إن ابن تيمية نبي)، فعُرِضت العبـارة على بعض أهـل العلم فبـالغ في أنكارِهـا. وعرضـتُها بنفسـي على سـماحته - رحمه الله تعالى - فتبسم ضاحكاً، وقال ما معناه: نعم، لذلك أصل .. ثم ذكرَ حديث (لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب)[2]

وهكذا يتصرف هؤلاء في النبوة كما يحلـو لهم.. وكـأن النبـوة لعبة من لعب الصبيان .. لا مرتبة من المراتب التي لا يصل العقل إلى كنهها وحقيقتها.. ووظيفة تنوء السموات والأرض دون حملها.

---

[1] رواه أحمد.

[2] الإمام ابن باز دروس وعبر، ص 33.

رسول الله .. والوسيلة

من الوظائف الكبرى التي جعلها الله لرسوله ﷺ، والتي هون من شأنها أصحاب القلوب المريضة من أهل السنة المذهبية وظيفة [الوسيلة]

وهي تعني ـ باختصار ـ أن رسول الله ﷺ لم يأتنا فقط بدليل النجاة الذي تمثل في الشريعة السمحة، بل هو فوق ذلك حبل النجاة وسفينتها التي من لم يركبها لم ينل شيئا، ولم يصل إلى شيء.

أو هو ـ بعبارة أخرى ـ ليس مجرد طبيب يصف الأدوية لأمته فقط، بل هو نفسه ﷺ الدواء الذي من لم يستعمله لم يشف أبدا.

وهذه الحقيقة التي تدعمها كل الأدلة العقلية والنقلية حاولت السنة المذهبية، وخاصة ممثلوها الكبار من أصحاب المدارس السلفية أن ينزعوا صلاحياتها من رسول الله ﷺ لتقتصر علاقته بالأمة على الدور التبليغي والتشريعي دون ما سواه من الأدوار.

ولم يكتفوا بذلك التهميش والتهوين من هذا الدور العظيم الذي تدل عليه كل الأدلة، بل راحوا يتهمون من يقول بهذه الوظيفة بالشرك والبدعة والضلال.

وهذه التهمة الجاهزة ناتجة من سوء فهمهم للتوحيد.. فهم يتصورون الله ــ نتيجة للوثة الوثنية التي تسربت إلى السنة المذهبية ــ كما يتصورون الملوك والحكام الذين لا يحبون أن تنشغل الرعية عنهم بغيرهم، ولذلك يعتبرون كل تعظيم لغير الملك شركا .. وينسون أن رسل الله وجميع الذين اصطفاهم الله ليسوا سوى مظهر من مظاهر العناية الإلهية، ومنبع من منابع الرحمة الربانية.

وينسون أن الرحمة الكاملة، والعناية التامة لا تتمثل فقط في تبليغ الشرائع، وبيان الأحكام، وإنما تتمثل فوق ذلك في أن يكون الرسول المصطفى من لدن الله هو نفسه طوق النجاة، وسفينتها.

وفرق كبير بين أن تمد يدك لشخص يغرق، وتمسك بها، وتنقذه، وبين أن تكتفي ببعض المواعظ والإرشادات التي تبين له ما عليه أن يفعل.

ولهذا من العجب أن يؤمن هؤلاء بأن الله جعل من الماء كل شيء حيا.. ولا يعتبرون القول بهذا شركا .. بينما لو ذكرت لهم

بأن الله جعل الحياة الحقيقيـة في التعلـق برسـول اللـه ﷺ تعلقـا تاما، لا بشرعه فقط، بل بذاته أيضا، يعتـبرون ذلـك شـركا وبدعـة وضلالة.. وكـأن المـاء أشـرف من رسـول اللـه ﷺ، وأعظم منزلـة منه.

وبناء على هذا المعنى أولـوا كـل النصـوص الدالـة على هـذه الوظيفة التي جعلها الله لرسول اللـه ﷺ، وظيفـة الوسـيلة، حـتى تنحصر وظيفته ﷺ في البلاغ والتبيين فقط.

وللدلاله على هذا، سنذكر هنا ــ باختصـار ــ أربعـة نمـاذج من مواقـف أصـحاب السـنة المذهبيـة تـدل على مـوقفهم من هـذه الوظيفة:

اختصار المعية في الصحابة:

وهو من أخطر المواقف التي تعدم وظيفة [الوسيلة]، وتزيلها من الوجود تماما، ذلك أن الاعتقـاد بأنـه لم يظفـر بصـحبة رسـول الله ﷺ غير صحابته المعدودين الذين عاصروه، وأن الأمة لم تظفر بعـدهم إلا بسـنته وشـريعته يقطـع الصـلة بين الأمـة ونبيهـا، لأن علاقتها به تصبح قاصرة على علاقة الاتبـاع والطاعـة، وهي علاقـة مرتبطة بالشريعة، لا بشخصة ﷺ.

وبذلك فإن أفراد الأمة بعد رسـول اللـه ﷺ وبهـذا المنطـق لا يستطيعون ـ بسبب الزمن الذي حال بينهم وبين معاصـرة رسـول الله ﷺ ـ أن يتنعمـوا بتلـك الصـحبة الشـريفة، وأن يظفـروا بتلـك المكانة الرفيعة، وأن تمتد إليهم يد رسول الله ﷺ.

ولهـذا نجـد أصـحاب السـنة المذهبيـة يبـالغون في مكانـة الصحابة على حساب مكانة الأمة .. ويتصورون أن الصـحابة حـتى لو صدر منهم مـا صـدر أشـرف وأكـرم وأعظم من الأمـة جميعـا، حتى أنهم يذكرون أن أولئك العشاق الـذين امتلأت قلـوبهم شـوقا لرسول الله ﷺ، بل مات الكثير منهم شوقا، وهو في طريق زيارة قبره الشريف لا يساوون شسع نعل حتى أولئـك الـذين لم يكونـوا يبالون برسول الله ﷺ، وهم معه، حتى يضـطر رسـول اللـه ﷺ أن يناديهم من خلفهم، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تُصْـعِدُونَ وَلَا تَلْـوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْـرَاكُمْ فَأَثَـابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُـوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمـران: 153]

بل منهم من ترك رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعــة، وذهب

ليلاقي القافلة، كما صور ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: 11]

ونحن لا نذكر هذا تحقيرا لمن فعل ذلك، ولكنا نتعجب أن يحتقر أولياء الأمة العظام الذين أفنوا حياتهم في حب رسول الله ﷺ، واعتبارهم جميعا لا يساوون شيئا أمام أدنى الصحابة.

ومن الأمثلة على مواقف أصحاب السنة المذهبية في هذا ما جاء في (الصواعق المحرقة) لابن حجر الهيتمي من قوله: (وأما ما اختص به الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وفازوا به من مشاهدة طلعته ورؤية ذاته المشرفة المكرمة فأمر من وراء العقل، إذ لا يسع أحدا أن يأتي من الأعمال وإن جلت بما يقارب ذلك فضلا عن أن يماثله، ومن ثم سئل عبد الله ابن المبارك ـ وناهيك به جلالة وعلما ـ أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال الغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله خير من عمر بن عبد العزيز كذا وكذا مرة، أشار بذلك إلى أن فضيلة صحبته ورؤيته لا يعدلها شيء)

ولست أدري ما دليله على هذا، ذلك أن الأحاديث الشريفة الكثيرة، والتي يؤيدها القرآن الكريم، ويؤيدها قبل ذلك العقل السليم تعتبر المعية الحقيقة هي معية المحبة والتعلق والشوق، لا معية الزمان والمكان والأجساد، فقد قال تعالى يبين المعية الكاذبة: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)﴾ [الحديد: 13، 14]

ولهذا فإن من القصور والغبن للأمة جميعا قصر المعية الواردة في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: 29] على صحابة رسول الله ﷺ.. بل كل من اتصف بتلك الصفات التي وردت في الآية تشمله المعية.

وقد ورد في الأحاديث الكثيرة ما يدل على هذا المعنى.. ولكن السنة المذهبية تعظم ما تشاء من النصوص، وتلغي ما تشاء منها.

ومن تلك الأحاديث ما رواه المحدثون من أن رجلا جاء رجل

إلى النـبي ﷺ فقـال: يـا رسـول اللـه: إنـك لأحبُّ إلي من نفسـي، وإنك لأحب إلي من ولـدي، وإني لأكـون في الـبيت فـأذكرك، فمـا أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك وعرفتُ أنـك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيـئين، وإني إذا دخلتُ الجنـة خشـيت أن لا أراك، فلم يردَّ النبي ﷺ حتى نزل جبريـل بهـذه الآيـة: ﴿وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَالرَّسُـولَ فَأُولَئِكَ مَـعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّـالِحِينَ وَحَسُـنَ أُولَئِكَ رَفِيقًـا﴾ [النسـاء: 69][1]

وعن أنس قال: (بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (ما أعددت لهـا ؟) قـال: (ولا صـدقة، ولكـني أحب الله ورسوله)، قال:(فأنت مع من أحببت)[2]

فهذا الحديث الشريف يربط المعية برسول الله ﷺ بمحبتــه.. فكل من أحبه، فهو معه، كان في زمانه ﷺ، أو لم يكن في زمانه.

ومن تلك الأحاديث الحديث العظيم المشهور الذي يظهـر يـد رسول اللـه ﷺ الشـريفة، وهي تمتـد إلى قلـوب أمتـه من بعـده.. ففي الحديث الذي تهتز له قلوب الأولياء أن رسـول اللـه ﷺ قـال: (وددت أني لقيت إخواني)، فقال له أصحابه: أوليس نحن إخوانك؟ قال: (أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)[3]

وفي رواية: (ومـتى ألقى إخـواني؟)، قـالوا: يـا رسـول اللـه، ألسنا إخوانك؟ قال: (بل أنتم أصـحابي، وإخـواني الـذين آمنـوا بي ولم يروني)[4]

بل ورد في أحاديث أخرى كثيرة ما يدل على المكانة الرفيعة التي يحظى بها من لم يتشرف برؤيته ﷺ في الـدنيا، وأنهـا لا تقـل عن مكانة صحابته، فقـد ورد في الحـديث الشـريف عن النـبي ﷺ قال: (من أشد أمتي لي حبا ناس يكونـون بعـدي، يـودُّ أحـدهم لـو رآني بأهله وماله)[5]

---

[1] حديث حسن أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقـال رواه الطـبراني في الأوسط والصغير وحسـنه ورجالـه رجـال الصـحيح غـير عبـد اللـه بن عمـران العابدي وهو ثقة. انظر أسباب النزول للإمام السيوطي ص 128..

[2] رواه الطبراني في الكبير.

[3] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 66).

[4] وهي لأحمد، وأبي يعلى.

[5] رواه مسلم.

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: (إن أشدَّ أمتي لي حبا قوم يكونون أو يجيئون، وفي رواية - يخرجون بعدي- يودّ أحدهم أنه أعطى أهله وماله وأنه رآني)[1]

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: (ليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحبُّ إليه من مثل أهله وماله)[2]

بل ذكر ﷺ المنهج الذي يمكن أن يصل به المؤمن إلى تلك المكانة الرفيعة من رسول الله ﷺ، فقال: (إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا، من صلى علي مائة مرة في يوم الجمعة وليلة الجمعة قضى الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا، ثم يوكل الله بذلك ملكا يدخله في قبري كما يدخل عليكم الهدايا يخبرني من صلى علي باسمه ونسبه إلى عشيرته فأثبته عندي في صحيفة بيضاء)[3]

فهذا الحديث يرسم خطة واضحة للمعية لا علاقة لها بالزمان، ولا بالمكان، بل علاقتها فقط بمدى التواصل مع رسول الله ﷺ، والذي تمثل الصلاة عليه أحد أهم مقوماته.

وورد في حديث آخر مقوم آخر، لا يرتبط لا بالمكان، ولا بالزمان، فقال: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون)[4]

فهذا الحديث يحدد حسن الخلق مقياسا لمكانة المؤمن من رسول الله ﷺ، وهو مما لا علاقة له لا بالمكان، ولا بالزمان.

ومثله قوله ﷺ: (خياركم أحاسنكم أخلاقا)[5] فقد ربط ﷺ الخيرية في هذه الأمة، وفي غيرها من الأمم بالأخلاق الحسنة.

وهذه الأحاديث وغيرها تتناسب مع ما يقتضيه العقل السليم، لأنه من الغريب أن تصنف الأمة في قربها من الله تعالى وقربها من رسول الله ﷺ على أساس زماني أو مكاني، لأن أي شخص قد يحتج على الله، فيقول له: يا رب لو أنك جعلتني في الزمن الذي كان فيه ﷺ لرأيت ما أصنع.

---

[1] رواه أحمد.

[2] رواه البخاري.

[3] حياة الأنبياء في قبورهم للبيهقي (ص: 93).

[4] سنن الترمذي.

[5] رواه الترمذي.

ولكن عندما يقـرن الأمـر بالطاعـة والمحبـة والـولاء حينهـا لا يبقى عذر لأحد.. لأن كل أحـد يمكنـه أن يحقـق هـذه المعـاني من غير حاجة لزمان ولا لمكان.

وقد حصل هـذا بالفعـل.. وقـد حظي الصـوفية عموما[1] بهـذا الشرف من دون كثير من الناس، وبذلك يكونون أقرب الناس إلى التمثل بالسنة النبوية في هذا المجال.

ولهذا نراهم يستعملون كـل الوسـائل للتواصـل الـروحي مـع رسول الله ﷺ، بل يرون الرجوع إليه ﷺ في كل محـل، وقـد نقـل النبهاني عن كتاب (العهود المحمدية) للشعراني قوله نصيحة لمن رغب في المجاورة في أحد الحرمين: (فإن كان من أهـل الصـفاء فليشاوره ﷺ في كل مسألة فيها رأي أو قياس ويفعل ما أشار بـه ﷺ بشرط أن يسمع لفظه ﷺ صريحا يقظة)[2]

ولهذا نراهم يعظمون رؤيـة رسـول اللـه ﷺ يقظـة أو منامـا، ويلتمسـون كـل الوسـائل لتحصـيلها، ومن أهمهـا كـثرة الصـلاة والسلام عليه، والتي تؤدي بالقلب إلى الاشـتغال بـه اشـتغالا كليـا يطغى على الروح والجسد، وحينها تحصل الرؤية بكل اللطائف..

وقد بين الشيخ علي جمعة حقيقـة الرؤيـة، وعـدم اسـتحالتها عقلا ونقلا، فقال: (ورؤيته ﷺ لا تعدو إلا أن تكـون انكشـافًا للـولي عن حاله الذي هو في قبره ﷺ يقظة، وهذا لا ينكره العقل، ويؤيده النقل .. وقد تكون الرؤية رؤية صورة النبي ﷺ الحقيقية بمعنى أن النـبي ﷺ في مكانـه في روضـته الشـريف، والـرائي رأى صـورته الشريفة، وتسمى صـورة من عـالم المثـال، وذلـك ينتج من كـثرة المحبـة والتفكـير في شخصـه الشـريف ﷺ، فالإنسـان قـد تتعـدد صورته بتعدد الأسطح العاكسة كالمرايا وغيرها)[3]

بـل إن السـيوطي يـذهب إلى أبعـد من ذلـك، فيقـول ــ بعـد إيراده للنصوص الواردة في هذا المجـال ــ: (فحصـل من مجمـوع هـذه النقـول والأحـاديث أن النـبي ﷺ حي بجسـده وروحـه، وأنـه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطـار الأرض وفي الملكـوت، وهـو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منـه شـيء، وأنـه مغيب

---

[1]) لا أقصـد كـل الصـوفية، لأن منهم من بـالغ في التـأثر بمنتجـات السـنة المذهبية حرصا على ألا يصنف خارجها.

[2]) النبهاني، سعادة الدارين، صـ 440.

[3]) انظر كتابه: البيان القويم لتصحيح بعض المفاهيم، دار السـندس للـتراث الإسلامي.

عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كـونهم أحيـاء بأجسـادهم، فـإذا أراد الله رفع الحجاب عمن أراد كرامتـه رآه على هيئتـه الـتي هـو عليها لا مانع من ذلك ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال)[1]

ومن الأحاديث التي يمكن الاستدلال بها على هـذا قولـه ﷺ: (من رآني في المنـام فسـيراني في اليقظـة ولا يتمثـل الشـيطان بي)[2]

فقوله ﷺ: (فسيراني في اليقظة) تدل على إمكان رؤيته في حياته، وتخصيص اليقظة بيوم القيامة بعيد، لأمرين:

الأول: أن أمتـه ﷺ سـتراه يـوم القيامـة من رآه في المنـام ومن لم يره.

الثـاني: أن الحـديث لم يقيـد اليقظـة بيـوم القيامـة، وهـذا التخصيص بغير مخصص تحكم ومعاندة.

بناء على هذا، فقد اهتم الصوفية بهـذه المسـألة، وألفـوا في تقريرها والبرهنة عليها كتبا منها كتاب السيوطي المعنون بـ (تنوير الحلك في إمكان رؤيـة النـبي والملـك)، والـذي قـال في مقدمته: (فقد كثر السؤال عن رؤية أرباب الأحـوال للنـبي ﷺ في اليقظـة، وأن طائفة من أهل العصـر ممن لا قـدم لهم في العلم بـالغوا في إنكـار ذلـك والتعجب منـه، وادعـوا أنـه مسـتحيل، فـألفت هـذه الكراسة في ذلك وسميتها (تنـوير الحلـك في إمكـان رؤيـة النـبي والملك)

وقد ساق النفراوي المالكي أسماء من قال بهذا من العلماء، وأدلتهم عليها، فقال: (يجوز رؤيته ﷺ في اليقظة والمنـام باتفـاق الحفاظ، وإنما اختلفوا هـل يـرى الـرائي ذاتـه الشـريفة حقيقـة أو يـرى مثـالا يحكيهـا، فـذهب إلى الأول جماعـة وذهب إلى الثـاني: الغزالي، والقرافي، واليافعي، وآخرون، واحتج الأولون بأنه سـراج الهداية، ونور الهدى، وشمس المعارف كمـا يـرى النـور والسـراج والشمس من بعد، والمرئي جرم الشمس بأعراضه فكذلك البـدن الشريف، فلا تفارق ذاته القـبر الشـريف، بـل يخـرق اللـه الحجب للـرائي ويزيـل الموانـع حـتى يـراه كـل راء ولـو من المشـرق والمغـرب، أو تجعـل الحجب شـفافة لا تحجب مـا وراءهـا، والـذي جزم به القرافي أن رؤياه منامًـا إدراك بجـزء لم تحلـه آفـة النـوم من القلب فهـو بعين البصـيرة لا بعين البصـر بـدليل أنـه قـد يـراه

1) تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك.

2) رواه البخاري، وأبو داود.

الأعمى. وقـد حكى ابن أبي جمـرة وجماعـة أنهم رأوا النـبي ﷺ يقظـة. وروي: (من رآني منامـا فسـيراني يقظـة)، ومنكـر ذلـك محروم؛ لأنه إن كان ممن يكذب بكرامـات الأوليـاء، فـالبحث معـه ساقط لتكذيبه ما أثبتته السنة أشار إلى جميع ذلك شـيخ مشـايخنا اللقاني في شرح جوهرة التوحيد)[1]

وقال الساحلي في (بغية السالك) بعدما ذكر طبقـات النـاس في انطباع صورته الشـريفة ﷺ في نفوسـهم: (ووراء هـذا مـا هـو أعلى درجة منه، وهو أن يراه بعين رأسه عيانا في عالم الحس ولا تنكـر هـذا، فقـد يكـرم اللـه من يشـاء من عبـاده بإقامـة صـورته الكريمة له حتى يشاهدها، وهـذا من جـائز الكرامـات الـتي يتحـف الله بها أولياءه)[2]

وقال مبينا دور الصلاة على رسول اللـه ﷺ في حصـول ذلـك التواصل المقدس مع رسـول اللـه ﷺ : (حـدثني أبي قـال:حـدثني شيخي أبو القاسم المريـد قـال: (كـان من جملـة أصـحابي الـذين أخذوا عـني رجـل يقـال لـه أبـو عبـد اللـه بن الخطيب بلـغ بكـثرة الصلاة على النبيﷺ درجة القرب منـه واتصـال مواصـلته، حـتى أن الفقيهين المحـدثين كانـا إذا اختلفـا في الحـديث من أحـاديث النبي ﷺ، فقال أحدهما: هو صحيح، وقال الآخر : هو ضعيف، أتيا (إلى أبي) عبد الله بن الخطيب، فيرغبان منه أن يسأل النـبي ﷺ عن الحديث المختلف فيه، ثم إنه إذا نـام رأى النـبي، فيسـأله عن ذلك الحديث، فيقول له: إما نعم أنا قلته، وإما لم أقله .. فيعرفهما بذلك، فيفيدهما ذلك قوة ظن لما علم من صدق أبي عبد اللـه بن الخطيب، واشتهر من حاله في العدالة.. وهذا وإن لم يفـد قطعـا، فلا يقصـر عن تغليب الظن، وكـان بحيث لا يتصـرف في أمـر إلا عن إذن النبي ﷺ)[3]

بل ذكر ـ فوق ذلك ـ ما كنا قد أشرنا إليـه من أن هـذا النـوع من العلاقـة برسـول اللـه ﷺ أعظم من أن ينحصـر في صـحابته، فقال: (وحدثني أبي عن شيخه أبي القاسم عن شيخه أبي عمران أنه قال في حكاية طويلة: (أيظن أصحاب محمد ﷺ أنهم اختصـوا به من دوننـا؟ واللـه لأزاحمنهم فيـه حـتى يعلمـوا أنهم قـد خلفـوا

[1]) الفواكه الدواني.

[2]) بغية السالك للساحلي: 1/248.

[3]) بغية السالك للساحلي: 1/249.

بعدهم رجالا)

ثم علـق على ذلـك بقولـه: (وهـذا إشـارة لتمكن وصـلته بـه، بكثرة ذكره، والعكوف على حبه)

ومـا ذكـره السـاحلي عن أبي عمـران هـو نفس مـا ذكـره الغزالي في الإحياء منسوبا إلى أبي مسلم الخـولاني حيث يقـول: (وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخـوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: (قـومي، فوالله لأزحفن بـك زحفـا، حتى يكون الكلل منك لا مني)، فـإذا دخلت الفـترة تنـاول سـوطه وضرب به سـاقه. ويقـول: أنت أولى بالضـرب من دابـتي، وكـان يقول: أيظن أصحاب محمـد ﷺ أن يسـتأثروا بـه دوننـا، كلا، واللـه لنزاحمنهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا)[1]

في مقابل هذا الانفتاح العظيم على التواصل مع رسول اللــه ﷺ، والذي تدل عليه الأدلة العقلية والنقلية نجد جمودا خطــيرا من أصحاب السنة المذهبية، والذين يتعاملون بنظـرة ماديـة مـع هـذه المسألة متجاهلين أن مبنى الإيمان على الغيبية والقدرة المطلقـة للـه.. ولـذلك لا يسـأل المـؤمن عن الكيفيـة مـا دام قـد تقـرر في العقل الإمكان.

ومن الأمثلـة على جمـود أصـحاب السـنة المذهبيـة في هـذه المسألة ما قالـه الشـيخ عبـدالعزيز بن بـاز عنـد حديثـه عن (حكم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف): (بعضـهم يظن أن رسـول اللـه ﷺ يحضر المولد ؛ ولهـذا يقومـون لـه مُحَيِّين ومرحّـبين، وهـذا من أعظم الباطل وأقبح الجهـل، فـإن الرسـول ﷺ لا يخـرج من قـبره قبــل يــوم القيامــة، ولا يتصــل بأحــد من النــاس، ولا يحضــر اجتماعاتهم، بل هو مقيم في قـبره إلى يـوم القيامـة، وروحـه في أعلى عليين عنـد ربـه في دار الكرامـة، كمـا قـال اللـه تعـالى في سورة المؤمنون: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثمَّ إِنَّكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:15-ـ 16)، وقال النبي ﷺ: (أنـا سـيد ولـد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر.وأول شـافع وأول مشـفع)[2] عليـه من ربـه أفضـل الصـلاة والسـلام. فهـذه الآيـة الكريمـة والحديث الشريف وما جاء في معناهما من الآيات والأحاديث، كلها تــدل على أن النــبي ﷺ وغــيره من الأمــوات إنمــا يخرجــون من قبورهم يوم القيامة)

---

[1] إحياء علوم الدين:4/436.

[2] رواه مسلم.

وما ذكره ابن باز من الأدلة عجيب، فلا أحد يجـادل في وفـاة رسول الله ﷺ، ولا في كونه أول من ينشق عنه القبر.. ولكن ذلك لا يعني عدم تواصله ﷺ مـع أمتـه، وقـد أخـبر ﷺ أنـه رأى الأنبيـاء، وصلى بهم، وأخبر عن حياتهم، وهم في قبورهم.

ولست أدري ما الذي يضر ابن باز أن يستشعر المؤمنون في مجالسهم حضور رسول الله ﷺ، ويتنعمون بذلك الحضـور، وتمتلئ قلوبهم لهفة وشوقا له ﷺ.

لكن أهـل هـذه السـنة لا يفقهـون هـذه المعـاني الجليلـة، ولا يستشعرونها، لأن التدين الذي يؤمنون به تدين لا يتجـاوز الظـواهر والسطحيات، ولذلك يقصرون علاقتهم برسـول اللـه ﷺ على تلـك الظواهر والسطحيات.

وليت الأمر اقتصر على هؤلاء المعاصرين، بل نجد ـ للأسف ـ من المتقـدمين، ومن الـذين تمتلئ بكتبهم رفـوف مكتباتنـا ــ من يردد أمثال هذه الكلمات، فقد قال القرطبي: (وهذا القـول يـدرك فساده بأوائل العقـول، ويلـزم عليـه ألا يـراه أحـد إلا على صـورته التي مات عليها، وأن لا يراه رائيان في آن واحـد في مكـانين وأن يحيا الآن، ويخرج من قبره ويمشى في الأسواق ويخـاطب النـاس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قـبره من جسـده فلا يبقى في قبره منه شيء فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب، لأنه جائز أن يرى في الليل والنهـار مـع اتصـال الأوقـات على حقيقتـه في غـير قبره، وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل)[1]

وكل هذه الإلزامات لا مبرر لها، بل لو أننا طبقنا ما قاله على العوالم الغيبية لانتفى الإيمان بها، لأن أحكـام عـالم الغيب ليسـت كأحكام عـالم الشـهادة، بـل إن الفيزيـاء الحديثـة تنفى الكثـير من التصورات التي نتوهمها عن عالم الشهادة نفسه.

فكون الشـيء في مكـانين في وقت واحـد لم يعـد مسـتحيلا كما كان يتصور في الفيزياء القديمة، والتي اعتمد عليها القرطـبي في تلك الدعاوى التي ادعاها.

وبهـذا يمكن تفسـير مـا ورد في النصـوص المقدسـة من أن ملك الموت يقوم بقبض أرواح خلـق كثـيرين وفي أمـاكن متعـددة في نفس الوقت.. فذلك ليس مستغربا عقلا، وقد دل عليه النقل.

ومثــل القرطــبي نجــد ابن تيميــة الــذي لم يكتــف بــدعوى الاستحالة التي ذكرهـا القرطـبي، بـل حـاول أن يجـد لهـا تفسـيرا

[1]() نقلا عن فتح الباري (12 / 384) .

كعادته، والتفسير هو أن الذي تمثل هو الشيطان، مع أن الحديث الصحيح يذكر استحالة تمثل الشيطان برسول الله ﷺ.

يقول ابن تيمية: (والضلال من أهل القبلة يرون من يعظمونه: إما النبي ﷺ وإما غيره من الأنبياء يقظة، ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد يستفتونه ويسألونه عن أحاديث فيجيبهم، ومنهم من يخيل إليه أن الحجرة قد انشقت وخرج منها النبي ﷺ وعانقه وصاحباه، ومنهم من يخيل إليه أنه رفع صوته بالسلام حتى وصل مسيرة أيام وإلى مكان بعيد .. وهذا موجود عند خلق كثير، كما هو موجود عند النصارى والمشركين، لكن كثير من الناس يكذب بهذا، وكثير منهم إذا صدق به يظنه أنه من الآيات الإلهية، وأن الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه، ولم يعلم أنه من الشيطان، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله الشيطان، ومن كان أقل علما قال له ما يعلم أنه مخالف للشريعة خلافا ظاهرا، ومن عنده علم منها لا يقول له ما يعلم أنه مخالف للشريعة ولا مفيدا فائدة في دينه، بل يضله عن بعض ما كان يعرفه، فإن هذا فعل الشياطين، وهو إن ظن أنه قد استفاد شيئا فالذي خسره من دينه أكثر، ولهذا لم يقل قط أحد من الصحابة : إن الخضر أتاه، ولا موسى ولا عيسى، ولا أنه سمع رد النبي ﷺ وابن عمر كان يسلم إذا قدم من سفر ولم يقل قط أنه يسمع الرد، وكذلك التابعون وتابعوهم، وإنما حدث هذا من بعض المتأخرين ممن قل علمه بالتوحيد والسنة، فأضله الشيطان كما أضل النصارى في أمور لقلة علمهم بما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام)[1]

ولم يكتف أصحاب السنة المذهبية بقطع التواصل مع رسول الله ﷺ من هذا الباب، بل نراهم يقطعون كل باب حتى باب الرؤية المنامية، فيقصرونها على صحابة رسول الله ﷺ دون غيرهم من أفراد الأمة.

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الشيخ ابن جبرين عندما سئل: (هل يمكن رؤية الرسول ﷺ في المنام؟ وما علامة صحة ذلك؟)

فأجاب بقوله: (وردت أحاديث كثيرة كما في صحيح البخاري في كتاب التعبير باب: (من رأى النبي ﷺ في المنام) .. وظاهره اختصاص الرؤيا الصحيحة بمن كان يعرف صورته وهم الصحابة الذين رأوه في حياته، أما التابعون ومن بعدهم فإن رؤيتهم له لا تدل على الرؤية الصحيحة، حيث أنهم ما رأوه في اليقظة، ولا

---

[1]) مجموع الفتاوى: 27 / 391 – 393.

عرفوا صورته مقابلة، فيمكن أن يكون المرئي شبيهاً به على غـير صورته الحقيقية، ولا مانع من تشـبه الشـيطان بغـيره وزعمـه أنـه محمد ﷺ)[1]

بعد هذا، فإننا لا ننكر أنـه قـد يقـع بعض الاسـتغلال الخـاطئ لرؤية رسول الله ﷺ، وأنه قد يوجد بعض المدعين الذين يشوهون هذا المعـنى.. لكن ذلـك لا يعـني أن نسـد هـذا البـاب من الفضـل الإلهي عن أمة رسول الله ﷺ لنقطع صلتها به، أو لنجعل صلتها به محصورة في دوائر محدودة ضيقة هي أقرب إلى الوهم منهـا إلى الحقيقة.

اعتبار التوسل برسول الله ﷺ شركا:

مع أن التوسل في حقيقته ليس سوى استشعار بأن لرسـول الله ﷺ مكانة عند الله تجعله يستطيع أن يمد بـالعون من مـد يـده إليه.. ويغيث من استغاثه.. ويشفع فيمن طلب منه أن يشفع له..

ومع أن هذا من الحقائق المقـررة في القـرآن الكـريم إلا أن أصحاب السنة المذهبية شاغبوا فيها إلى درجة اعتبار القائلين بهذا مشركين شركا جليا تحل به دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه الشيخ عبد الـرحمن بن حسـن آل الشيخ تعليقا على بعض الأبيـات في الـبردة، واعتبارهـا شـركا: (بلغنـا من نحـو سـنتين اشـتغالكم بـبردة البوصـيري، وفيهـا من الشرك الأكبر ما لا يخفى، من ذلك قوله: (يا أكـرم الخلـق مـا لي من ألوذ به سواك) إلى آخر الأبيات، الـتي فيهـا طلب ثـواب الـدار الآخـرة من النـبي ﷺ وحـده، وكونـه ﷺ أفضـل الأنبيـاء لا يلـزم أن يختص دونهم بأمر نهى الله عنه عباده عمومـاً، وخصوصـاً، بـل هـو مأمور أن ينهى عنه، ويتبرأ منه، كما تبرأ منه المسيح بن مريم في الآيات في آخر سورة المائدة، وكما تبرأت منه الملائكة في الآيات التي في سورة سبأ.. وأما اللياذ: فهو كالعياذ، سواء، فالعياذ لـدفع الشر، واللياذ لجلب الخير، وحكى الإمام أحمد وغيره الإجماع على أنه لا يجوز العياذ إلا بالله، وأسمائه، وصـفاته، وأمـا العيـاذ بغـيره: فشرك، ولا فرق)[2]

ولسـت أدري كيـف ينكـرون هـذا، وهم يقـرؤون في القـرآن

---

[1] فتاوى في الرؤى، لابن جبرين.

[2] رسائل وفتاوى الشيخ عبـد الـرحمن بن حسـن بن محمـد عبـد الوهـاب: 1/82.

الكريم الأدلة الكثيرة المثبتة للشفاعة والمثبتة قبل ذلك للوسائط، كقوله تعالى: وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ [التوبة: 74]، وقال عن سليمان عليه السلام: هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [ص: 39]

بل ورد في كتب السنة التي يعتمدونها ما يدل على أن رسول الله ﷺ سيكون ملاذا يوم القيامة للخلائق جميعا يطلبون منه أن يشفع لهم عند الله، ففي الحديث الوارد في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة: (فيأتون، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليّ، ويلهمني من محامده، وحسن الثناء ليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال ك أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب)

ولست أدري كيف يعتبرون الاستغاثة برسول الله ﷺ يوم القيامة، واللجوء إليه إيمانا وتسليما، في نفس الوقت الذي يعتبرون اللجوء إليه في الدنيا شركا وكفرا.

وهل أن رسول الله ﷺ له وجود يوم القيامة، وليس له وجود الآن؟

أو أن مكانته عند الله، والتي تؤهله للشفاعة، مؤجلة إلى يوم القيامة، أما في هذه الدنيا، فلا مكانة له؟

والأخطر من ذلك كله هو كيفية استحالة القضية الواحدة إلى إيمان من جهة، وإلى شرك من جهة أخرى.. وهذا من أعجب العجب الذي يقع فيه أصحاب السنة المذهبية.

إذ أنهم يعتبرون لجوء الخلق إلى رسول الله ﷺ، ومد أيديهم إليه في الآخرة إيمانا وتسليما، في نفس الوقت الذي يعتبرون مد أيديهم إليه في الدنيا شركا.. مع أنه لو كان ذلك شركا، لكان في الآخرة أكبر لأن الخلق في ذلك الموقف عاينوا أهوال القيامة، وانكشفت الحقائق أمامهم رأي العين.

بالإضافة إلى هذا، فقد ورد في الأحاديث الكثيرة ما يدل على لجوء الصحابة إلى رسول الله ﷺ ليس لأجل أمر دينهم فقط، بل لأمور دنياهم أيضا، فكان رسول الله ﷺ يجيب دعواتهم.. بل

يحضهم على التوسل به لتحقيقها.

بل ورد في القرآن الكريم الأوامر الإلهية تـدعو إلى اسـتثمار هذه الناحية من رسول الله ﷺ والاستفادة منها، قال تعالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 64]

وبناء على هذا كان التوسل برسول الله ﷺ نوعا من الحضور معه، والشعور بمعيته، وله تأثير كبير في ربط القلب بمحبته، وهـو السبيل الصحيح لسلوك سنته.

لكن أصحاب السنة المذهبية حرموا الأمـة من الاسـتفادة من هذه المعاني الجليلة حين اعتبروا كل ذلـك شـركا وضـلالة، وأولـوا كـل مـا ورد في ذلـك من النصـوص، أو كـذبوها مـع ورود الأدلـة الكثيرة على صحتها.

ومن أمثلة تلك المواقف موقف ابن تيمية الـذي راح في هـذا المحل ـ كغيره من المحـال الـتي لا تتناسـب مـع منهجـه ــ يطلـق أيقونته المعهودة في تكذيب النصـوص الـتي لا تتناسـب مـع هـواه الأموي، فقال في كتابه الذي خصصه لهذا الغـرض (قاعـدة جليلـة في التوسـل والوسـيلة): (السـؤال بـه، فهـذا يجـوّزه طائفـة من الناس، ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف، وهو موجود في دعاء كثير من الناس، لكنَّ ما روي عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيفٌ بل موضوع، وليس عنـه حـديث ثـابت قـد يظن أن لهم فيـه حجـة، إلا حديث الأعمى الذي علّمه أن يقـول: (أسـألك وأتوجـه إليـك بنبيـك محمد نبي الرحمة)، وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه، فإنـه صـريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته، وهـو طلب من النـبي ﷺ الدعاء، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول: (اللهم شَـفِّعْه فيَّ) ولهـذا رد الله عليه بصره لما دعا له النـبي ﷺ، وكـان ذلـك ممـا يعـد من آيات النـبي ﷺ ولـو توسـل غـيره من العميـان الـذين لم يـدْعُ لهم النبي ﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله)[1]

وبما أننا رددنا على هذا بتفصيل في كتابنا [شـيخ الإسـلام في قفص الاتهام]، وذكرنا الكثير من الأدلة على تهـافت مـا ذكـره ابن تيميـة من عـدم صـحة مـا ورد في هـذه المسـألة من نصـوص، فسنكتفي هنا بالرد على ما ذكـره من ارتبـاط التوسـل بحياتـه ﷺ، وقصر ذلك على صحابته دون غيرهم من أفـراد الأمـة، وهـو قـول يفضي إلى قطع صلة الأمة بنبيها كما ذكرنا ذلك سابقا.

---

[1]) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة 1/ 122)

والرد على هذا ـ أولا ـ بأن موت رسول الله ﷺ لا يغاير حياته إلا في ناحية واحدة، وهي انقطاع الوحي، أما ما عداه فإن حياته ﷺ لاشك فيها، بل تدل عليها كل الأدلة.. فإن كان الشهداء، وهم أدنى بآلاف آلاف الدرجات من رسول الله ﷺ قد نفى الله موتهم، ونهى عن اعتقاد ذلك، فقال تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (آل عمران:169)، فكيف برسول الله ﷺ وهو سيد الشهداء والعارفين والنبيين؟

ثم إن رسول الله ﷺ أخبر بأن أعمال أمته تعرض عليه، وأنه يدعو لهم، فقال ﷺ:(حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيرا لكم، تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله تعالى وإن رأيت شرا استغفرت لكم)[1]

فإن شك في هذا الحديث، فقد قال تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبة:105)

فإن قيل: بأن هذه رؤية وليست دعاء أو شفاعة، فنقول: إن كان الله تعالى أخبر بدعوة الملائكة ـ عليهم السلام ـ للمؤمنين، كما قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (غافر: 7)، فإن كان هذا مع حملة العرش، فكيف برسول الله ﷺ، ومع أمته التي كلف بها، وهو أحرص الخلق عليها؟

وقد أخبر ﷺ أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، فقال ﷺ:(إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا)[2]

فإن جاز هذا للعشائر والأقارب، وهم أفراد من الأمة، فكيف لا يجوز لرسول الله ﷺ، وهو أحن على أمته من آبائهم، وأمهاتهم، وقد قال تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (الأحزاب: 6)

هذا أولا .. وبالإضافة إليه فإن الشرك الحقيقي هو اعتقاد التأثير لرسول الله ﷺ في حال حياته، وعدم التأثير بعد موته.. لأن المؤمن يدرك أن الله هو الفاعل والمؤثر مطلقا .. وأن دور

[1]) رواه ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلا.
[2]) رواه أحمد والطيالسي.

رسـول اللـه ﷺ هـو الوسـاطة.. أي أنـه وسـيلة للفضـل الإلهي.. ولذلك فإن هـذه اللفظـة وحـدها [الوسـيلة] تـدل كـل عاقـل على التوحيد الحقيقي الذي تدل عليه السـنة النبويـة.. لا التوحيـد الـذي يدعو إليه أصحاب السنة المذهبية.

الحكم ببدعية جميع مظاهر الارتباط الشعوري برسول الله ﷺ:

مع أن النصوص الكثيرة تدل على أن العلاقة برسول اللـه ﷺ لا تقتصـر فقـط على الجـانب التشـريعي، بـل تتعـداه إلى تلـك المشاعر العاطفية العميقة، والتي قـد تفـرز من السـلوكات مـا لا يمكن الحكم عليه بالضلالة أو البدعة باعتباره إفـرازا طبيعيـا لتلـك المحبة والأشواق العظيمـة إلا أننـا نجـد أصـحاب السـنة المذهبيـة يغضون الطرف عن كل تلك النصوص، ويهملونها، ولا يهتمون بهـا، بل يعتبرون السنة في الجفـاء لرسـول اللـه ﷺ، والبدعـة في كـل السلوكات التي ترشح عن المحبة، وتنبع من الشوق.

ولهذا نجد علما كبيرا من أعلام السنة المذهبية، كـابن تيميـة، يقف مواقف سلبية من زيارة قبر رسول الله ﷺ.. بل يحاول بكـل ما أوتي من أسلحة التبديع والتضليل أن يحول من زيارته ﷺ والتي تحن لها القلوب، إلى معصية من المعاصـي، بـل بدعـة من البـدع، مع أن ذلك مما تعارفت عليه الأمة الإسلامية سلفها وخلفها، بل ما تعارفت عليه الأمم من قبلها حتى لا تنقطع صلتها بمن ترجع إليهم في شؤون دينها ودنياها، وحتى لا تزول آثارهم التي تدل عليهم.

وقد ذكر ابن تيمية هذه المسألة في مواضع كثـيرة من كتبـه، ومنهـا فتـواه لمن سـأله عن قولـه ﷺ: (مَن زار قـبري وجبت لـه شفاعتي)، و(من زار البيت ولم يزرني فقـد جفـاني)، وهـل زيـارة النبي ﷺ على وجه الاستحباب أو لا؟

فأجاب: (أمّا قوله: (مَن زار قبري وجبت لـه شـفاعتي) فهـذا الحديث رواه الدارقطني ـ فيما قيل ـ بإسناد ضعيف، ولهـذا ذكـره غير واحد من الموضوعات، ولم يروه أحد من أهل الكتب المعتمـد عليها من كتب الصـحاح والسـنن والمسـانيد، وأمّـا الحـديث الآخـر قوله: (مَن حج البيت ولم يزرني فقد جفاني)، فهـذا لم يـروه أحـد من أهـل العلم بالحـديث، بـل هـو موضـوع على رسـول اللـه ﷺ ومعناه مخالف للإجماع، فإنّ جفاء الرسـول ﷺ من الكبـائر.. وأمّـا زيارته فليست واجبـة باتّفـاق المسـلمين، بـل ليس فيهـا أمـر في الكتاب ولا في السـنّة، وإنّمـا الأمـر الموجـود في الكتـاب والسـنّة

بالصلاة عليه والتسليم. وأكثر ما اعتمده العلماء في الزيـارة قولـه في الحديث الذي رواه أبو داود: (ما من مسلم يسـلّم عليّ، إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام)[1]

بل إن الأمر وصل به إلى هذا الجفاء الـذي عـبر عنـه بقولـه: (أن إتيان مسجد رسول الله ﷺ وقصد ذلـك والسـفر لـذلك أولى من إتيان قـبره لـو كـانت الحجـرة مفتوحـة والسـفر إليـه بإجمـاع المسلمين. فإن الصحابة كـانوا يـأتون مسـجده في اليـوم والليلـة خمس مرات والحجـرة إلى جـانب المسـجد لم يـدخلها أحـد منهم لأنهم قد علموا أنه نهـاهم أن يتخـذوا القبـور مسـاجد وأن يتخـذوا قبره عيدا أو وثنا.. وكذلك قد علموا أن صلاتهم وسلامهم عليه في المسجد أولى من عند قبره. وكل من يسافر للزيارة فسفره إنمـا يكون إلى المسـجد سـواء قصـد ذلـك أو لم يقصـده والسـفر إلى المسجد مستحب بالنص والإجماع)[2]

وقال: (لو كان قبر نبينا يزار كما تزار القبور لكان أهل مدينته أحق الناس بذلك كما أن أهل كل مدينـة أحـق بزيـارة من عنـدهم من الصالحين فلما اتفق السلف وأئمة الدين على أن أهل مدينتــه لا يزورون قبره بـل ولا يقفـون عنـده للسـلام إذا دخلـوا المسـجد وخرجوا وإن لم يسمى هـذا زيـارة، بـل يكـره لهم ذلـك عنـد غـير السفر!! كما ذكر ذلك مالك وبين أن ذلك من البـدع الـتي لم يكن صدر هذه الأمة يفعلونـه علم أن من جعـل زيـارة قـبره مشـروعة كزيارة قبر غيره فقد خالف إجماع المسلمين)[3]

وقال في (الرد على الأخنائي): (ولهذا كان الصحابة في عهـد الخلفاء الراشدين إذا دخلوا المسجد.. لم يكونوا يذهبون إلى ناحية القـبر فيزورونـه هنـاك ولا يقفـون خـارج الحجـرة كمـا لم يكونـوا يـدخلون الحجـرة أيضـا لزيـارة قـبره .. ولا كـانوا أيضـا يـأتون من بيوتهم لمجرد زيارة قبره ﷺ بل هذا من البدع التي أنكرهـا الأئمـة والعلماء وإن كان الزائر ليس مقصـوده إلا الصـلاة والسـلام عليـه وبينوا أن السلف لم يفعلوها)[4]

وقال في نفس الكتاب: (ومعلوم أن أهل المدينة لا يكره لهم

---

[1]) مجموع الفتاوى: 27/25.

[2]) مجموع الفتاوى (27/ 309).

[3]) مجموع الفتاوى 27/ 243.

[4]) الرد على الأخنائي ص 385.

زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد وغيرهم ... ولكن قبر النبي ﷺ خص بالمنع شرعا وحسا كما دفن في الحجرة ومنع الناس من زيارة قبره من الحجرة كما تزار سائر القبور فيصل الزائر إلى عند القبر، وقبر النبي ﷺ ليس كذلك فلا تستحب هذه الزيارة في حقه ولا تمكن) [1]

بل إنه لم يكتف بهذا، بل راح يحرم السفر لزيارة رسول الله ﷺ، ويعتبره بدعة، ويحرم قصر الصلاة لمن فعل هذا، وكأن الذي يريد أن يزور رسول الله ﷺ يريد أن يفعل معصية.

وقد أفتى الفتاوى الكثيرة في ذلك، منها قوله: (وأما إذا كان قصده بالسفر زيارة قبر النبي دون الصلاة في مسجده، فهذه المسألة فيها خلاف، فالذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أن هذا غير مشروع ولا مأمور به، لقوله ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)[2]

ومنها قوله في (مجموع الفتاوى): (السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهو مخالف للسنة ولإجماع الأئمة)[3]

ومنها قوله في تبديع أشواق المسلمين لزيارة رسول الله ﷺ عند الهم بالحج: (حتى أن أحدهم إذا أراد الحج لم يكن أكثر همه الفرض الذي فرضه الله عليه وهو حج بيت الله الحرام، وهو شعار الحنيفية ملة إبراهيم إمام أهل دين الله بل يقصد المدينة. ولا يقصد ما رغب فيه النبي ﷺ من الصلاة في مسجده .. بل يقصد من زيارة قبره أو قبر غيره ما لم يأمر الله به ورسوله ولا فعله أصحابه ولا استحسنه أئمة الدين. وربما كان مقصوده بالحج من زيارة قبره أكثر من مقصوده بالحج وربما سوى بين القصدين وكل هذا ضلال عن الدين باتفاق المسلمين بل نفس السفر لزيارة قبر من القبور - قبر نبي أو غيره - منهي عنه عند جمهور العلماء حتى أنهم لا يجوزون قصد الصلاة فيه بناء على أنه سفر معصية.. وكل حديث يروى في زيارة القبر فهو ضعيف بل

---

[1]) الرد على الأخنائي ص 386.

[2]) الفتاوى الكبرى 5/ 146.

[3]) مجموع الفتاوى 27/ 220.

موضوع)[1]

وقد حصل بسبب فتاواه في ذلـك فتنـة عظيمـة في الأمـة لا نـزال نعيشـها آثارهـا إلى الآن، قـال الحافـظ ابن حجـر يشـير إلى ذلـك: (والحاصـل أنهم ألزمـوا ابن تيميـة بتحـريم شـدِّ الرحـل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ.. وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية)[2]

وقال الحافظ أبو زرعة العـراقي في بعض أجوبتـه المسـماة (الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية) عنـد الكلام على المسـائل التي انفرد ابن تيمية بها: (وما أبشع مسألتي ابن تيمية في الطلاق والزيارة، وقد رد عليه فيهما معاً الشيخ تقي الدين السبكي، وأفرد ذلك بالتصنيف فأجاد وأحسن)[3]

وقال في (طرح التثريب): (وللشيخ تقي الدين ابن تيمية هنـا كلام بشع عجيب يتضمن منع شـد الرحـل للزيـارة، وأنـه ليس من القرب، بل بضـد ذلـك، ورد عليـه الشـيخ تقي الـدين السـبكي في شفاء السِّقام فشفى صدور قوم مؤمنين)[4]

وذكـر الحافـظ العلائي المسـائل الـتي انفـرد بهـا ابن تيميـة، ومنها هذه المسألة، فقال: (ومنها أنَّ إنشاء السفر لزيارة نبينـا ﷺ معصية لا تقصر فيها الصلاة، وبالغ في ذلـك ولم يقـل بـه أحـد من المسلمين قبله)

هذا نموذج من النماذج وإلا فـإن ابن تيميـة ومدرسـته وأعلام السنة المذهبية لم يتركوا حبلا يربط الأمة بنبيها إلا قطعوه، وليتهم اكتفوا بقطعه، بل راحـوا يتهمـون الـذين يمـدون أيـديهم كـل حين لرسـول اللـه ﷺ بالبدعـة والضـلالة والشـرك، وغيرهـا من التهم الجاهزة.

قطع صلة الأمة بأهل بيت نبيها ﷺ

من الحبـال الممـدودة من رسـول اللـه ﷺ لأمتـه من بعـده، والتي تواترت النصوص بالدلالة عليها حبل أهل بيته عليهم السلام، والذين وردت الوصية بهم بأساليب مختلفة.

---

[1] مجموع الفتاوى (4/ 519)

[2] فتح الباري: (5/66).

[3] الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية ص96-98.

[4] طرح التثريب (6 / 43)

لعل أبلغها ما ورد في القرآن الكريم عند حديثه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. فالله تعالى يعطي أهمية خاصة لذرية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويبين أن لهم مكانة كبيرة، لا من الجانب العاطفي فقط، وإنما من جانب العملي أيضا، باعتبار أن لهم اصطفاء خاصا، ودورا مهما في الرسالة وحفظها والوفاء بمقتضياتها.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى سنته في ذلك، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 33، 34]

ومن العجيب أن يطالب عشاق آل بيت النبوة بالدليل بعد هذه الآية الكريمة، وهي أوضح الواضحات.. فإن كان الله تعالى قد اصطفى آل إبراهيم وآل عمران.. وهما أدنى من رسول الله ﷺ بكثير.. فكيف لا يصطفى آل بيت رسول الله ﷺ؟

ومثل تلك الآية الكريمة قوله تعالى عند تسميته للأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين في القرآن الكريم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87)﴾ [الأنعام: 83 - 87]

فهذه الآيات الكريمة توضح الصلات النسبية بين الأنبياء جميعا، وتبين أن الاجتباء الإلهي شملهم بهذا الشكل، ولا راد لاجتباء الله.

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا التعميم، بل ذكر تفاصيل كثيرة تدل عليه، حتى يترسخ في الأذهان أن اصطفاء الأنبياء فضل إلهي باعتباره استمرارا للنهج الرسالي وتوحيدا لمسيرته حتى لا تنحرف به الطرق والمناهج.

ومن تلك التفاصيل ما ذكره الله تعالى من اصطفائه لآل إبراهيم عليهم السلام في آيات متعددة، كقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

[العنكبوت: 27]

بل إن القرآن الكريم يذكر أن إبراهيم عليه السلام نفسه دعا الله أن يكون الخط الرسالي ممتـدا في ذريتـه، فقـال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـاتٍ فَـأَتَمَّهُنَّ قَـالَ إِنِّي جَاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِمَامًـا قَـالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124]

وقد صرح القرآن الكريم بانقسام ذريته إلى محسـن وظـالم في قولـه تعـالى: ﴿وَبَشَّـرْنَاهُ بِإِسْـحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّـالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْـحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَـا مُحْسِـنٌ وَظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: 112، 113]

بـل إن اللـه تعـالى صـرح بـأن الأمـر بـاق في عقبـه، فقـال: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28]

بل إن الله تعالى ذكر أن إبـراهيم عليـه السـلام – كمـا سـأل ربه أن يجعـل ذريتـه أئمـة للنـاس - سـأله أيضـا أن يوفـق النـاس لمودتهم والاقتداء بهم، فقال – على لسان إبراهيم عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْـدَ بَيْتِـكَ الْمُحَـرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّـلَاةَ فَاجْعَـلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْـوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]

ومن تلك التفاصـيل مـا ذكـره اللـه تعـالى من اصـطفائه لآل موسى وآل هارون عليهم السلام، كما يشير إلى ذلك قولـه تعـالى في قصـة طـالوت: ﴿ وَقَـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَـةَ مُلْكِـهِ أَنْ يَـأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيـــهِ سَـــكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَـــرَكَ آلُ مُوسَـــى وَآلُ هَـارُونَ تَحْمِلُـهُ الْمَلَائِكَـةُ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 248]

بل إننا نجـد أن اللـه تعـالى اختـار هـارون أخـا موسـى عليـه السـلام ليكـون معينـا لـه ووزيـرا بنـاء على طلب موسـى، فقـال: ﴿ وَلَقَـدْ آتَيْنَـا مُوسَـى الْكِتَـابَ وَجَعَلْنَـا مَعَـهُ أَخَـاهُ هَـارُونَ وَزِيـرًا ﴾ [الفرقان: 35]

ومن تلك التفاصـيل مـا ذكـره اللـه تعـالى من اصـطفائه لآل يعقوب عليهم السلام، وهم وإن كـانوا جـزءا من آل إبـراهيم، لكن القرآن خصهم بالذكر عند الحديث عن يوسـف بن يعقـوب عليهمـا السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيـكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُـكَ مِنْ تَأْوِيـلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْـكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: 6]

وذكرهم عند الحديث عن زكريا عليه السلام حينمـا دعـا اللـه

عز وجل وطلب الذرية الصالحة، فقال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: 5، 6]

ومن تلك التفاصيل ما ذكره الله تعالى من اصطفائه لآل داود عليهم السلام، والذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: 13]، وقد بين القرآن الكريم أن سليمان ورث داود، فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16]

وهكذا نجد حديث الله عن اصطفائه لآل بيت أنبيائه، وإعطائهم مكانة خاصة، وهي سنته فيهم، ورسول الله ﷺ أولى بذلك منهم، إن لم يكن نظيراً لهم فيه، وقد قال تعالى عنه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9]

لكن السنة المذهبية تعرض عن كل هذه النصوص الواضحة في دلالتها، والقطعية في ثبوتها لتعتبر أن تقديم آل الرسول على غيرهم أثر من آثار الجاهلية في تقديم أهل بيت الرؤساء، كما نص على ذلك ابن تيمية بقوله في (منهاج السنة) – على طريقته الخاصة في التحايل -: (وإنما قال من فيه أثر جاهلية عربية أو فارسية: إن بيت الرسول أحق بالولاية. لكون العرب كانت في جاهليتها تقدم أهل بيت الرؤساء، وكذلك الفرس يقدمون أهل بيت الملك، فنقل عمن نقل عنه كلام يشير به إلى هذا، كما نقل عن أبي سفيان، وصاحب هذا الرأي لم يكن له غرض في علي، بل كان العباس عنده بحكم رأيه أولى من علي، وإن قدر أنه رجح عليا، فلعلمه بأن الإسلام يقدم الإيمان والتقوى على النسب، فأراد أن يجمع بين حكم الجاهلية والإسلام)[1]

وابن تيمية بهذا القول وغيره من الأقوال الشنيعة يرمي كما كبير من النصوص التي يوصي فيها رسول الله ﷺ بآل بيته، ويعتبرهم مراجع الأمة من بعده، بل يعتبرهم صمام أمنها، وسفينة نجاتها كما قال ﷺ: (مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق)[2]

ففي الحديث المتواتر في كتب السنة، قال ﷺ : (إني تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، الثقلين وأحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي

---

[1] منهاج السنة النبوية (6/ 455)

[2] رواه البزار، والطبراني.

أهل بيتي. ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)[1]

وفي رواية: (أيها الناس. إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول من ربي فأجيب. وإني تارك فيكم الثقلين. أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي)[2]

وللأسف فإن هذا الحديث مع وروده بلفظ (كتاب الله وعترتي) ومع كثرة الروايات الواردة فيه بهذا المعنى استبدل بحديث آخر، وصار هو المعروف عند الناس، وهو استبدال (عترتي) بلفظ (سنتي) مع أنه لم يرد في أي من الصحاح الست، وقد أخرج الحديث بهذا اللفظ مالك بن أنس في موطئه ونقله مرسلا غير مسند، وأخذ عنه بعد ذلك البعض كالطبري وابن هشام ونقلوه مرسلا كما ورد عن مالك.

مع العلم أنه في قانون المحدثين لا يروى الحديث إلا بأصح صيغه، هذا في حال كون الصيغة المروية عن مالك صحيحة باعتبار المحدثين لأنها مرسلة، ولكنه للأسف صار الحديث المرسل هو الأصل، وصار الحديث المتواتر في حكم المكتوم، بل لو أن شخصا حدث به لاتهم في دينه.

بالإضافة إلى هذا، فقد وردت الأدلة الكثيرة التي تدل على وجوب الرجوع إلى آل البيت لتلقي الدين، وهي لا تعد ولا تحصى، فقد ورد في الحديث الصحيح المعروف: (علي مني وأنا منه. ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي)[3]

وقال ﷺ: (ومن أحبّ أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل الجنّة التي وعدني بها ربّي، وهي جنّة الخلد، فليتوّلَ عليّاً وذرّيته من بعدي؛ فإنّهم لن يخرجوكم من هدى، ولن يدخلوكم باب ضلالة)[4]

وقال ﷺ : (إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله. فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. ولكنه خاصف النعل وكان

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه مسلم.

3) رواه أحمد.

4) رواه الحاكم.

علي يخصف نعل رسول الله في الحجرة عند فاطمة)[1]

وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: (لتنتهن معشر قريش، أو ليبعثن الله عليكم رجلا مني امتحن الله قلبه للإيمان، يضرب أعناقكم على الدين. قيل يا رسول الله أبو بكر؟ قال: لا. قيل: عمر. قال: لا. ولكن خاصف النعل في الحجرة)[2]

لكن السنة المذهبية ـ للأسف ــ أعرضت عنهم، بل قدمت عليهم الطلقاء واليهود، حتى أن مرويات كعب الأحبار في تفسير القرآن الكريم وفي كتب العقيدة أكبر بكثير من المرويات التي رووها عن أهل البيت عليهم السلام.

بل إننا نجد أهل هذه السنة يعظمون السنة التي حصل فيها المأساة الكبرى حين حصل الصلح بين الحسن بن علي مع معاوية، ويسمون تلك السنة سنة الجماعة.. ويعتبرون معاوية بموجبها خليفة للمسلمين مع تلك النصوص الكثيرة التي تعتبر الحسن بن علي سيد شباب أهل الجنة .. وأن له مكانة عظيمة في الدين..

ولكن مع ذلك يعتبرون ذلك الموقف إقرارا منه بحقانية معاوية، وهم ينسون أن يقرؤوا قوله تعالى في وصف وضع قريب من الوضع الذي كان فيه الحسن بن علي: ﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: 92 - 94]

فهذه الآيات توضح سنة من سنن الغواية التي يتلاعب بها الشيطان بأتباع الأنبياء حين يسول لهم أن يأخذوا دينهم من السامري، ويتركوا النبي وآل بيت النبي.

ومثلما حصل للحسن بن علي حصل لأخيه الحسين بن علي الذي ورد في الأحاديث الكثيرة بيان فضله ومرتبته من الدين، وأنه نفس رسول الله ﷺ، ومع ذلك نجد أصحاب السنة المذهبية حين يذكرون تلك التضحية العظيمة التي قام بها الحسين للحفاظ على الدين في وجه من يريد تحريفه، يحتقرون ما فعله، بل يعتبرونه من الأخطاء الكبرى التي لا منفعة فيها.. ويقدمون عليه مواقف ابن عمر وغيره من الصحابة..

---

[1]) رواه الترمذي وأحمد.

[2]) رواه الترمذي وأحمد.

يقـول ابن تيميـة: (ولم يكن في الخـروج لا مصـلحة دين ولا مصلحة دنيا بل تمكن أولئـــك الظلمـة الطغـاة من سـبط رسـول الله ﷺ حتى قتلـوه مظلومـاً شـهيداً وكـان في خروجـه وقتلـه من الفساد مـا لم يكن حصـل لـو قعـد في بلـده. فـإن مـا قصـده من تحصيل الخـير ودفـع الشـر لم يحصـل منـه شـيء، بـل زاد الشـر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك وصار ذلك سبباً لشر عظيم)[1]

وهكـذا أصـبح ابن تيميـة وغـيره من أعلام السـنة المذهبيـة أسـاتذة وأئمـة وناصـحين لـذلك الـذي قـال فيـه رسـول اللـه ﷺ: (حسين مني وأنا من حسين، أحب اللـه من أحب حسـيناً، حسـين سِبْطٌ من الأسباط)[2]

بل أعلن ﷺ، وهـو في حياتـه الشـريفة أنـه سـلم لمن سـالم وحرب لمن حارب، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ نظر إلى ابنتـه فاطمة وإلى علي ومعهما الحسن والحسين وقال لهم: (أنـا حـرب لمن حاربكم، وسِلْمٌ لمن سـالمكم)[3]، وقـال: (من أحب الحسـن والحسـين أحببتـه، ومن أحببتـه أحبـه اللـه، ومن أحبـه اللـه أدخلـه جنات النعيم، ومن أبغضـهما أو بغى عليهمـا أبغضـته ومن أبغضـته أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله جهنم وله عذاب مقيم)[4]

ولكن مع ذلك فإن أصحاب السنة المذهبيـة اعتـبروا كـل من سالم آل بيت النبوة ووقف معهم ضالا ومبتدعا، واعتـبروا كـل من حاربهم وناصبهم العداء سنيا ومهتديا.

---

[1] منهاج السنة ج4 ص530-531.

[2] رواه أحمد وابن ماجة.

[3] رواه أحمد.

[4] رواه الطبراني في الكبير.

رسول الله .. والحياء

ورد في النصوص المقدسة الكثيرة اعتبار الحيـاء من أمهـات الأخلاق، وأركانها، وأنـه يسـتحيل أن يكـون الإنسـان متخلقـا، وهـو خال من الحياء..

بل أخبر رسول الله ﷺ أن الحياء هو الخلق الممثـل للإنسـان المسلم، فقال: (إن لكلّ دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء)[1]

بل أخبر أنه أثر من آثـار الإيمـان وعلامـة من علاماتـه، فقـال مخاطبـا رجلا رآه يعـاتب أخـاه في الحيـاء: (دعـه فـإن الحيـاء من الإيمان)[2]

بل ذكر ﷺ أن الحياء منبع لكل خير، ولكل خلق طيب، فقـال: (الحياء لا يأتي إلا بخير)[3]

وقد وضح رسول الله ﷺ سر كـون الحيـاء أصـلا من الأصـول التي تنبع منها جميـع الأخلاق الطيبـة، فقـال ــ موضـحا لمن قصـر الحياء على مناح معينة ـ: (ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحيـاء أن تحفـظ الـرأس ومـا وعى، والبطن ومـا حـوى، ولتـذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينـة الـدنيا، فمن فعـل ذلـك فقد استحيا من الله حق الحياء)[4]

ووضح في حديث آخر أسرار تـأثير فقـدان الحيـاء في اعتلال الشخصية وانحرافها، فقـال: (إن اللـه عـز وجـل إذا أراد أن يهلـك عبدا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتـا ممقتـا، فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نـزعت منـه الأمانـة، فـإذا نـزعت منـه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مخونا، فإذا لم تلقه إلا خائنا مخونـا نـزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا، فــإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة الإسلام)[5]

وهكذا نرى من خلال هذه الأحاديث وغيرهـا قيمـة الحيـاء في الدين، وعلاقته بالإيمان، وعلاقته بكمال الشخصية..

لكنا عندما نعود للقلـوب المريضـة الـتي أتيح لهـا أن تسـرب

---

[1]) رواه ابن ماجه.

[2]) رواه البخاري.

[3]) رواه البخاري.

[4]) رواه الترمذي وصححه الحاكم.

[5]) ابن ماجة.

بعض سمومها إلى تراثنا الحديثي نجدها ترسم صورة مختلفة تماما عن رسول الله ﷺ تتناقض مع هذا الخلق العظيم.. فهي تصوره بصورة الفاحش المتفحش الذي يمارس من السلوكات ما يستحيي منه أبسط الناس وأحقرهم وأبعدهم عن ذلك الكمال الذي آتاه الله نبيه ﷺ.

ومن الأمثلة على ذلك الحديث المروي في مناقب عثمان بن عفان.. والذي أراد واضعه من خلاله أن يحبب الناس في عثمان باعتباره من الشخصيات التي وقع حولها التنازع بين مذاهب الأمة وطوائفها، لكنه نسي أن الذي سيضحي به ليثبت به تلك المنقبة هو رسول الله ﷺ الذي هو أستاذ الأساتذة ومربي الأمة جميعا، بل هو رسول الرسل، وأقرب المقربين إلى الله.

ونص الحديث هو ما رواه مسلم وغيره عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعا في بيتي، كاشفا عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ، وسوى ثيابه - قال محمد: ولا أقول ذلك في يوم واحد - فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال: (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)[1]

وقد تلقف أصحاب السنة المذهبية هذا الحديث كما يتلقفون القرآن الكريم، يأبون من يتكلم فيه، ويبررون كل ذلك بأشياء لا قيمة لها أمام قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]

ذلك أنهم إن قالوا: إن ما فعله رسول الله ﷺ من كشفه لفخذه لم يكن مما يستدعي الحياء، فذلك يجعلهم يتناقضون مع ما ورد في السنن الكثيرة من إثبات كون الفخذ عورة[2].. وبذلك يكون كشفها حراما.. وبذلك يكون رسول الله ﷺ في تصورهم قد ارتكب حراما.

فإن جادلوا، وقالوا: ومع تلك الأحاديث .. فالأرجح أن الفخذ

---

[1] رواه مسلم.

[2] ومنها ما روي عن محمد بن عبد الله بن جحش أن النبي ﷺ مر على معمر بفناء المسجد محتبيا كاشفا عن طرف فخذه فقال له النبي ﷺ: (خمر فخذك يا معمر فإن الفخذ عورة)، رواه أحمد ورواه الطبراني في الكبير، ورجال أحمد ثقات.

ليس عورة.. رد عليهم بأن رسـول اللـه ﷺ ذكـر في الحـديث بـأن كشـفها ليس من الحيـاء.. لأن المسـتحيي لا يتـورع عن الحـرام فقـط، بـل يتـورع عن الشـبهات، بـل حـتى عن المباحـات الـتي لا تنسجم مع ما يقتضيه الخلق الطيب.

فإن جادولوا ـ وهذه عادتهم ـ بأن رسول اللـه ﷺ خص بـذلك عثمان .. رد عليهم بأن الخلق واحد مع الجميع، فلا يمكن لشـخص أن يعتبر صادقا، وهو يصدق مع قوم دون قوم.. أو في قضـية دون قضية..

فإن جادلوا، وقالوا: ولكن الحـديث في صـحيح مسـلم.. قلنـا لهم: صحيح مسلم وصحيح البخاري وكل كتب الدنيا فـداء لشـعرة من شـعر رسـول اللـه ﷺ.. فأيهمـا أعظم لكم أن يـرد حـديث قـد يتـوهم راويــه أو يخطئ كاتبـه، أو تمس كرامــة رسـول اللــه ﷺ، ويمس أعظم ميزة فيه ﷺ وهو أخلاقه العالية الـتي لا يضـاهيها أي كان صحابيا كـان أو نبيـا أو حـتى ملاكـا مقربـا.. فكيـف تتصـورون بربكم أن صحابيا ـ لا ترون عصمته ـ يكون أعظم خلقا من رسـول الله ﷺ؟

هذا مثال على ذلك.. وليت الأمر توقـف على هـذا.. بـل ربمـا يكون واضع هذا الحديث وأمثاله يؤسسـون نظريـا لمـا هـو أخطـر وأعظم .. لأنهم إن أودعوا في النفوس بأن رسول الله ﷺ لا يتوفر له الحياء الذي يتوفر لعثمان.. فـإنهم بعـد ذلـك يمكنهم أن يضـعوا من الأحاديث العملية المثبتـة لـذلك مـا يسـهل قبولـه، خاصـة من الـذين يقـدمون السـلف والسـنة المذهبيـة الـتي جـاءوا بهـا على رسول الله ﷺ نفسه.

ومن الأمثلة العملية التي نزعوا بهـا ثـوب الحيـاء عن رسـول الله ﷺ ذلك الحديث الخطير الـذي يكفي تصـور مشـهده لـيرتعش كل الجسم منه.

ففيه نرى السنة المذهبية، وهي بكامل أمراضها تضع رســول الله ﷺ في موقـف حـرج جـدا منـاف لكـل قيـام الحيـاء والعفـاف والنبل، وكل ذلك لتظهر الصحابة في مظهر أكرم وأشـرف وأنبـل من رسول الله ﷺ.. وكأن رسول الله ﷺ هو الذي كان يتتلمذ على أيديهم، لا هم الذين يتتلمذون على يديه.

ونص الحديث كما رواه الترمذي وصححه الألباني عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ جالسـا فسـمعنا لغطـا وصـوت صـبيان، فقام رسول الله ﷺ فإذا حبشية تزفن والصبيان حولها، فقـال: (يـا

عائشة تعالي فانظري)، فجئت فوضعت لحيي على منكب رسـول الله ﷺ، فجعلت أنظر إليها مـا بين المنكب إلى رأسـه، فقـال لي: (أما شبعت، أما شبعت؟). قالت: فجعلت أقـول لا لأنظـر منزلـتي عنـده إذ طلـع عمـر، قـالت: فـارفض النـاس عنهـا: قـالت: فقـال رسول اللـه ﷺ: (إني لأنظـر إلى شـياطين الإنس والجن قـد فـروا من عمر)، قالت: فرجعت[1].:

ومع أن تصور هذا الحديث وحده كاف للدلالة على ما نقول.. ولكن مع ذلك نحتاج إلى بعض التوضـيحات الـتي ترسـم المشـهد، وتقربه من القارئ المعاصر.

والصورة هي أنه كـانت هنـاك جاريـة .. والظـاهر أنهـا عاقلـة بالغة .. بدا لها أن ترقص كما يرقص الحبشة في الشـارع.. وأمـام الناس.. وكان الصبية يلتفـون حولهـا، وهي بتلـك الحالـة.. فلمحهـا رسول اللـه ﷺ ـ ونسـتغفر اللـه من هـذا ـ فأسـرع إلى عائشـة، وطلب منها أن تحضر مجلس الـرقص.. وعنـدما حضـرت وضـعت عائشة ـ بحسـب الحـديث ـ ذقنهـا على منكب رسـول اللـه ﷺ .. وأمام الناس.

وبعد مدة طلع عمر فانفض النـاس عن الجاريـة خوفـا منـه.. مع أنه كان رسول الله ﷺ معهم.. ومع ذلك لم يشعروا بشيء..

وليت الأمـر توقـف عنـد هـذا، إذن لأمكن أن نحتـال ببعض المبررات.. لكن المشكلة أن هؤلاء ذكروا أن رسول الله ﷺ عندما رأى الناس يفـرون لحضـور عمـر قـال: (إني لأنظـر إلى شـياطين الانس والجن قد فروا من عمر)

وهذا عجب عجاب.. وتصور المشهد وحده كـاف لضـرب كـل القيم التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ولن أجادل هؤلاء كثيرا.. بل أكتفي بأن أطلب منهم فقـط أن يحيوا السنة المرتبطة بهذا المشـهد.. بـأن يحضـروا زوجـاتهم.. ثم يطلبون منهم أن يشاهدوا عروض الرقص التي يقـوم بهـا الحبشـة أو غيرهم.

فـإن عـز عليهم ذلـك، وخـافوا على وقـارهم، فليكتفـوا بـأن يحضروا زوجـاتهم ـ وأمـام الملأ من النـاس ـ ويحيـوا سـنة وضـع الزوجة ذقنها على منكب زوجها كما رووا في الحديث..

أم أنهم يرون ذلك خادشا لحيائهم ووقارهم ومروءتهم.. فـإن كان كذلك فلم جوزوا لرسول الله ﷺ ما نزهوا عنه نفوسهم.

---

[1] رواه الترمذي.

وقد قرأت في فتاواهم الكثيرة ما يدل على حرمة ما هو أقل درجة من الفعل الذي وصفوا به رسول الله ﷺ، فقد وجه للشيخ محمد الصالح المنجد في موقعه [الإسلام سؤال وجواب] هذا السؤال: (هل يجوز للزوجين أن يقبض كل منهم على يد الأخر وهم يمشون في الشارع؟)

ومع أن هذا أدنى بكثير من المشهد الذي رسموه لرسول الله ﷺ لكن مع ذلك كان جواب الشيخ: (يجب على الرجل وامرأته إذا سارا معا في الشارع أن يتحليا بالحشمة ويتصفا بالوقار، وخاصة إذا كانا ملتزمين بأحكام الدين وآداب الإسلام، فإن الناس في العادة يتخذونهما قدوة، وينظرون إليهما نظرة تبجيل واحترام، فلا بد من مراعاة ذلك..)

هذه صورة من الصور التي تستعلي بها السنة المذهبية على رسول الله ﷺ نفسه حين تجوز عليه من خوارم المروءة ما تنزه نفسها وسدنتها عنه.

وبمناسبة ذكر السدنة لو أنك قبل أن تورد الحديث ذكرت لهؤلاء أنه قد نشر على النت صورة لابن باز أو العثيمين أو غيرهما من المشايخ، وهو على الحالة التي صور بها رسول الله ﷺ لاشتد غضبه، وذكر لك أن ذلك كذب، وأن ابن باز أو ابن العثيمين أكبر وأتقى من أن يفعلا هذا.

وبهذه المناسبة أذكر أني في بعض المجالس، حيث كنا نتحدث عن سورة عبس، فذكرت للجالسين، وأكثرهم من أهل السنة المذهبية، أن هناك رواية تنص على أن الذي عبس هو عثمان بن عفان، وليس رسول الله ﷺ، فقامت قيامة أحدهم، وقال لي: أنت بقولك هذا تطعن في الصحابة.. ونسي أنه بقوله أنها نزلت في رسول الله ﷺ يطعن في رسول الله ﷺ.. لكن السنة المذهبية تجوز الطعن في رسول الله، ولا تجوز انتقاد بعض مواقف أصحابه، مهما كان ذلك الانتقاد لطيفا ومؤدبا.

وليت السنة المذهبية اكتفت بأمثال هذه المشاهد.. بل إنها توغل في رفع الحياء عن رسول الله ﷺ حين تصوره بتلك الصورة التي نهى عنها نهيا شديدا، بل اعتبر فاعلها شيطانا، وهو ما نص عليه الحديث الذي ذكر فيه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، وفيه نسوة من الأنصار، فوعظهن، وذكرهن، وأمرهن أن يتصدقن، ولو من حليهن، ثم قال: (ألا عست امرأة أن تخبر القوم بما يكون من زوجها إذا خلا بها، ألا هل عسى رجل أن يخبر القوم بما يكون

منه إذا خلا بأهله)، فقامت امـرأة سـفعاء الخـدين، فقـالت: واللـه إنهم ليفعلــون، وإنهن ليفعلن. فقــال ﷺ: (فلا تفعلــوا ذلــك، أفلا أنبئكم ما مثل ذلك؟ مثـل شـيطان لقي شـيطانة بـالطريق، فوقـع بها، والناس ينظرون)[1]

فمـع أن أصـحاب السـنة المذهبيـة يـروون هـذا الحـديث، ويطبقونه في حياتهم أحسن تطبيق، فلا نرى أحدهم يـذكر علاقتـه بأهله.. لكنهم مع رسول الله ﷺ يتجرؤون فيذكرون ما يسـتحيا من ذكره..

ومن الروايات الورادة في هذا المجال ـ والتي يرتجف الفـؤاد من ذكرها وسماعها ـ ما رواه مسلم تحت عنوان (بـاب: نـدب من رأى امــرأة فــوقعت في نفســه إلى أن يــأتي امرأتــه أو جاريتــه فيواقعها)

ثم أورد رواية عن جابر أن رسول اللـه ﷺ رأى امـرأة، فـأتى امرأته زينب، وهي تمعس منيئة لهـا، فقضـى حاجتـه ثم خـرج إلى أصحابه، فقال: (إن المـرأة تقبـل في صـورة شـيطان، وتـدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة، فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه)[2]

وفي رواية أخرى، أو حادثة أخرى ـ كما يذكر أصـحاب السـنة المذهبية عند تعدد الروايات ـ عن عبد اللـه بن مسـعود قـال: رأى رسول الله ﷺ امرأة فأعجبته، فأتى سودة وهي تصنع طيبا وعندها نسوة، فأخلينـه، فقضـى حاجتـه، ثم قـال: (أيمـا رجـل رأى امـرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها)[3]

ولست أدري ما أقـول تعليقـا على هـذه الروايـات، وهـل هي تتعلق برسول الله ﷺ الذي نعرفه .. والممتلئ بالطهارة والعفـة .. ذلك الذي وصف الله تهجده وزهده وعبادتـه وتقـواه .. ذلـك الـذي أتته الدنيا راغمة، فقال: إليك عني.. ذلك الذي آثر في شـبابته إلى كهولته أن يتزوج امرأة تكبره سنا، وكان مع ذلـك في أكـثر أوقاتـه متوجها إلى ربه مستغرقا في تلك العوالم الجميلة.. أم أنه شخص آخر مختلف تماما.

وهذا الشخص الذي ألصقوه برسول الله ﷺ غريب جدا، فهــو

---

[1]) مساوئ الأخلاق للخرائطي (ص: 199).

[2]) رواه مسلم.

[3]) رواه الدارامي (2/196) و البيهقي في الشعب (4/367)

لا يكتفي بـأن يسـتأذن أصـحابه من أجـل أن يعاشـر زوجتـه .. بـل يستأذن النساء أيضا بأن يتركنه مع زوجته لقضاء حاجته.. ثم يعــود إليهم، وتعود هي إليهن.. وكأنه لم يحصل شـيء.. وكأنـه لم يفعـل شـيئا يجتهـد أصـحاب الطبـع السـليم في سـتره، ويسـتحيون من مجرد الإشارة إليه.

وفوق ذلك يرمـون رسـول اللـه ﷺ بأنـه رمى بصـره للمـرأة الغريبة الأجنبية، فأعجبته .. وهم يريـدون بـذلك: أثـارت شـهوته .. لأن الإعجاب المجرد لا يدعو إلى ما ذكروه..

ومن الأمثلة على هذا مـا روي أن رجلا سـأل رسـول اللـه ﷺ عن الرجل يجامع أهله ثم يكسـل، هـل عليهمـا الغسـل؟ وعائشـة جالسة، فقال ﷺ: (إني لأفعل ذلك أنا وهذه، ثم نغتسل)[1]

فهل يمكن لمن روى هذا، أو نقله، أو لأي مفت في الـدنيا أن يذكر لمستفتيه كيف يعاشر أهله؟ وهـل هنـاك ضـرورة تـدعو إلى ذلك؟

ولكن هؤلاء يجوزون على رسول الله ﷺ كـل مـا يتنـافى مـع المروءة والشهامة والنبل في نفس الوقت الذي ينزهون أنفســهم عنه.

ومن الأمثلة الخطيرة على ذلك ما كرره ابن تيمية مرارا عند تحــذيره من صــحبة الأحــداث والمــردان من قولــه: (وقــد روى الشعبي عن النبي ﷺ: أن وفد عبـد القيس لمـا قـدموا على النـبي ﷺ وكان فيهم غلام ظاهر الوضاءة أجلسه خلف ظهره؛ وقال: إنما كانت خطيئة داود - عليه السلام – النظر) [2]

ثم علق عليه بقولـه: (هـذا وهـو رسـول اللـه ﷺ وهـو مـزوج بتسع نسوة؛ والوفد قوم صالحون، ولم تكن الفاحشة معروفة في العرب؟)[3]

وقد رواه ـ مع تشدده مع الأحاديث ــ وكأنـه حـديث صـحيح لا مجال لرفضه مع أن الحديث مكذوب موضوع ..

وهو دليل على تلك الصورة البشعة التي يحملها دعـاة السـنة المذهبية عن رسول اللــه ﷺ .. فهـل يمكن لرسـول اللـه ﷺ ذلـك الطاهر المطاهر الممتلئ بالقداسة أن يخطر على باله مثـل ذلـك الشذوذ أصلا..

---

[1] رواه مسلم.

[2] الفتاوى الكبرى لابن تيمية (3/ 203)

[3] الفتاوى الكبرى لابن تيمية (3/ 203)

والأمثلة على ذلك غير ما ذكرت كثيرة، وهي مما يفرح به المبشرون والمستشرقون والمستغربون، وهي كلها مما يورده أصحاب السنة المذهبية من باب تبيين أحكام الشريعة.. فهل أحكام الشريعة تبين بتشويه رسول الله ﷺ، وبنزع تلك الصورة القدسية عنه لتحل بدلها صورة المراهق الشهواني الذي لا علاقة له بالدين ولا برب العالمين؟

عندما نترك كل هذا الغثاء والدخن الذي جاءت به السنة المذهبية ونذهب إلى السنة النبوية نجد الأمر عكس ذلك تماما، فالقرآن الكريم الذي هو المصدر الأول للسنة النبوية وللتعريف برسول الله ﷺ وسنته وسيرته يصف رسول الله ﷺ بالحياء الشديد، وفي موقف كان يمكن أن يكون جازما فيه، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: 53]

تصوروا هذا المشهد الذي يتولى فيه الله سبحانه وتعالى إخبار الصحابة أن رسول الله ﷺ يستحيي من إخراجهم بيته بعد سمرهم الطويل عنده.. وكان في إمكانه ﷺ أن يخرجهم بأي طريقة.. ولكنه كان حريصا على قلوبهم ومشاعرهم أن تتأذى ولو بما لا يتأذى منه.

ولذلك وصفت السنة النبوية رسول الله ﷺ بأنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها[1] .. وأنه ﷺ لحيائه الشديد، لم يكن يرد سائلا، فعن أنس بن مالك قال: (وكان النبي ﷺ لا يُسْأل شيئا إلا أعطاه)[2] .

ومما وصف به هند بن أبي هالة رسول الله ﷺ قوله: (من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء)[3]

وكلنا يعرف قصته ﷺ مع البردة، والتي رواها سهل بن سعد أنَّ امرأة جاءت بُبِرْدَةٍ منسوجة، فيها حاشيتُها، قال سهل: أتدرون

---

[1]) رواه البخاري و مسلم.

[2]) رواه أبو داود.

[3]) رواه الترمذي في الشمائل.

ما البُردةُ؟ قالوا: الشَّمْلةُ؟ قال: نعم، قالت: نَسَجتُها بيــدي، فجئتُ لأكْسُوكَها، فأخذها رسولُ الله ﷺ محتاجاً إليهـا، فخـرج إلينـا وإنهـا لإزاره، فحسَّنها رجل، فقال: اكسُنِيها يا رسولَ اللـه، مـا أحسـنَها! فقال القوم: ما أحسنتَ، لَبِسها النبيُّ ﷺ محتاجاً إليهـا، ثم سـألتَها، وعلمتَ أنه لا يردُّ سائلاً، قال: إني واللـه مـا سـألته لألْبَسـها، إنمـا سألته لِتكون كَفني، قال سهل: فكانت كَفَنَهُ)[1]

وغيرهـا من الأحـاديث الكثـيرة الـتي تصـف رسـول اللـه ﷺ الحقيقي .. رسول الله الذي حاولت السنة المذهبية أن تصوره لنا بصـورة أولئـك الأجلاف الغلاظ المتوحشـين ليتحـول المتـدين إلى جلـف غليـظ كمن نـراهم من أصـحاب السـنة المذهبيـة الـذين لم يكتفوا بتشويه أنفسهم، بل شوهوا دين الله، وشوهوا معه رســول الله.

[1]) رواه البخاري.

رسول الله .. والقوة

يمكن اعتبار القوة صفة من صفات رسول الله ﷺ الكبرى التي يتفق العقل والنقل في إثباتها له..

فالعقل الفطري الذي لم يتدنس بدنس الحقد والأهواء يقر بأنه لم يوجد في الدنيا جميعا رجل استطاع ــ مع انعدام كل الوسائل المادية ـ أن ينشر من الهداية والنور ما نشره رسول الله ﷺ، وكأن العالم قبل وجوده يختلف تماما عن العالم بعد وجوده.. وكأن البشرية تحولت بعد بزوغ نوره بمرحلة متقدمة جدا في طور الإنسانية مقارنة بالمرحلة التي سبقت ظهوره.

وذلك كله لا يستطيع القيام به ــ من الناحية العقلية والمنطقية ـ إلا من أوتي من القوة بجميع أنواعها وجبالها.

بالإضافة إلى هذه البديهية العقلية، فإن التأمل في حياة رسول الله ﷺ، والنظر إلى صورته في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة يثبت هذا، ويؤكده، بل يضيف إليه أبعادا لا يستطيع العقل المجرد أن يكتشفها.

فأول قوة لرسول الله ﷺ هو تلك الطاقة العجيبة التي جعلته يتحمل وحي الله، ويصبح واسطة بين الله وعباده.. وهذه طاقة لا يستطيع العقل المجرد تصورها، وقد أشار الله تعالى إلى ثقلها وعظمها وشدتها، فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5]، والقول الثقيل هنا ليس فقط بمعناه، وإنما باستقباله أيضا.

ولهذا ورد في السنة المطهرة ما يدل على تلك المعاناة الشديدة التي يتحملها رسول الله ﷺ عند تلقيه للوحي، فقد ورد في الحديث عن زيد بن ثابت قال: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي[1].

وحدث عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أسمع صلاصيل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض)[2]

وحدثت عائشة قالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا هذا

---

[1] رواه البخاري.

[2] رواه أحمد.

لفظه[1].

وحدث غيرها أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقتـه، وضعت جرانها، فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه[2].

وهكذا تواترت الروايات والشهادات عن قـوة تحملـه ﷺ أثنـاء تلقيه الوحي..

ولا يقـف الأمـر عنـد ذلـك.. فـالوحي يتطلب تنفيـذا .. كمـا يتطلب تبليغا .. كما يتطلب مواجهة.. وفي كـل ذلـك كـان رسـول اللـه ﷺ مثـال القـوة في التنفيـذ، والقـوة في التبليـغ، والقـوة في المواجهة.

وكمثال على قوته في التنفيذ ذلك الأمر الإلهي الشديد الـذي نزل عليه في أول نبوته، والتزمه ﷺ إلى أخـر لحظـة من حياتـه .. قيام الليل.. فقد كان من أول ما نـزل عليـه قولـه تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)﴾ [المزمل: 1 - 4]

وقد كان ﷺ حريصا على تطبيق هذا الأمـر الإلهي مـع شـدته، ومع الظروف الخطيرة التي مر بها، والتي كانت تستدعي منـه أن يأخذ حظه من النوم بالليل، ولكنه كـان يـأبى ذلـك.. ويجعـل أكـثر ليله قياما لله، بعد نهار ممتلئ بالمشاق والمتاعب..

وقد نقل حذيفة مشهدا من مشاهد قـوة رسـول اللـه ﷺ في العبادة، فقال: صليّت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: يركـع عنـد المائـة. قـال: ثُمّ مضـى فقلت: يصـلي بهـا في ركعـة فمضـى، فقلت: يركـع بهـا ثم افتتح النسـاء فقرأهـا، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مـرّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوّذ تعـوَّذ، ثم ركـع فجعـل يقـول: سـبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقـال: سـبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه[3].

وعن عبد الله بن مسعود، قال: صليّت مع النبي ﷺ ذات ليلـة فلم يزل قائمـاً حـتى هممت بـأمر سـوءٍ. قلنـا: مـا هممت؟ قـال:

---

[1] رواه البخاري.

[2] رواه أحمد.

[3] رواه مسلم.

هممت أن أجلس وأدعه[1].
وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطّر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً[2]؟
وهكذا كان ﷺ في جميع الشعائر التعبدية، فقد كان ــ وفي تلك الصحراء شديدة الحر، ومع كل تلك الجهود العظيمة التي تنوء بها الجبال ـ يقضي معظم أيامه صائما، وفوق ذلك، وبعد أن يفطر الناس لا يسارع إلى الإفطار إذا حل وقته كما يسارع الناس، بل كان يواصل.. أي يصل في صومه ليله بنهاره.. فعن أنس عن النبي ﷺ قال:(لا تواصلوا)، قالوا: إنك تواصل، قال:(لست كأحد منكم، إني أطعم وأسقى، أو إني أبيت أطعم وأسقى)[3]
وهكذا كان ﷺ في تبليغه رسالة ربه .. فقد كان لا يرتاح لحظة واحدة دون تبليغها حتى أنه سافر إلى الطائف التي تبعد عن مكةَ المكرَّمةِ أكثر من خمسة وثمانين كيلو مترًا .. وسار إليها على قدمَيْه الشريفتين.. وبمجرد أن وصل إليها، ردوا عليه ردًّا منكَرًا، وسَخِروا منه واستهزؤوا به؛ بل قال له أحدهم: هو يَمْرُط (أي: أُمَزِّق) ثيابَ الكعبة إنْ كان الله أرسلَك. وقال الآخَر: أمَا وجَدَ الله أحدًا يرسله غيرك؟ وقال الثَّالث: والله لا أكلِّمك أبدًا، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول، لأنتَ أعظمُ خطرًا من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلِّمك!.
وفوق ذلك كله أغروا به الصِّبيان والعبيد والسُّفهاء، ووقفوا صفَّيْن، وأخذوا يرمونه بالحجارة، ويسخرون منه، ويسبُّونه بأقبح السباب والشتائم، حتَّى إنَّه ﷺ كان لا يرفع قدَمًا، ولا يضعها إلاَّ على الحجارة، وسالت الدِّماء من قدَميْه الشريفتين.
ولكنه ﷺ بعد ذلك كله، لم يتأثر، ولم ينفعل، ولم يدعو عليهم، بل دعا لهم، وقد ورد في الحديث أن عائشة سألته ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحُدٍ؟ قال: (لقَد لقيتُ من قومِك، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذْ عرَضْتُ نفسي على ابن

---
[1]) رواه البخاري ومسلم.

[2]) رواه البخاري ومسلم.

[3]) رواه أحمد والبخاري.

عبد ياليلَ بن عبد كلالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلاَّ وأنا بقرن الثَّعالب، فرفعتُ رأسي، وإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السَّلام فناداني، فقال: إنَّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملكُ الجبال، فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّد، إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملَكُ الجبال، وقد بعثني ربِّي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؛ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبَيْن، فقال النبِيُّ ﷺ: (بل أرجو أن يُخْرِج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئًا)[1]

ولم يتوقف الأمر عند الطائف، فقد كان ﷺ لأجل أداء رسالة ربه مضطرا لمخالطة كل أصناف الناس بطباعهم المختلفة، وخاصة المستضعفين منهم، والذين أمره الله تعالى بالصبر على مخالطتهم، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف:28)

وقد قام رسول الله ﷺ بما اقتضته هذه الأوامر من واجبات خير قيام، فكان ينهض لكل مسكين، ويقوم لكل محتاج.. ونحن نعلم كثرة المساكين في ذلك الوقت، وكثرة الحاجات، وقد قال العباس لرسول الله ﷺ بعد أن رأى الجهد الذي يصيبه جراء ذلك: يا رسول الله إني أراهم قد آذوك، وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشا تكلمهم فيه، فقال رسول الله ﷺ:(لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبى وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)[2]

وكان فوق ذلك يتحمل ضنك الحياة، والبؤس الشديد حتى أنه كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان تمر الأشهر ولا يوقد في بيته نار.. ومع ذلك لا نسمع منه إلا حمد الله، ولا نرى منه إلا ما يرضي الله.

هذه قطرة من بحر قوة رسول الله ﷺ كما يدل عليها العقل.. وكما يدل عليها القرآن الكريم والسنة النبوية.. لكن

---

[1]) رواه البخاري ومسلم.

[2]) رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

السنة المذهبية تنفخ سمومها على هذه الخصلة العظيمة لتنحـرف بها انحرافا خطيرا يشوه رسول الله ﷺ أعظم تشويه.

وسأنقل هنا نماذج عن ذلك التشويه الخطـير، والـذي ينطلـق من تفسير معنى قوة رسـول اللـه ﷺ.. والـذي وردت بـه روايـات متعددة منها ما روي عن أنس بن مالك قال: (كان النـبي ﷺ يـدور على نسائه في الساعة الواحـدة من الليـل أو النهـار، وهن إحـدى عشرة. قال: قلت لأنس: أو كـان يطيقـه؟! قـال: كنـا نتحـدث أنـه أعطي قوة ثلاثين)[1]

ومنها ما رواه عن محمد بن المنتشـر قـال: (ذكرتـه لعائشـة، فقالت: يرحم اللـه أبـا عبـد الـرحمن، كنت أطيب رسـول اللـه ﷺ فيطوف على نسائه، ثم يصبح محرما ينضخ طيبا)[2]

ومنها ما رواه قتادة عن أنس: (أن رسول اللـه ﷺ كـان يـدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة: قال - أي قتادة -: قلت لأنس بن مالك: فهل كان يطيق ذلك؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة أربعين)[3]

وقد لقيت هذه الأحاديث الممتلئة بالغرابة، والمتعارضة تمامـا مع العقـل والنقـل، قبـولا حسـنا من أصـحاب القلـوب المريضـة.. فراحت تستخدمها وسيلة لتشويه رسول اللـه ﷺ قصـدت ذلـك أم لم تقصد.

أمـا غرابـة تلـك الأحـاديث من حيث العقـل، فلا شـك فيهـا.. فالرجل الذي يصيبه هذا الشغف وهذه الهستريا بحيث يقوم بجولة سريعة على إحدى عشرة امـرأة وفي سـاعة واحـدة ليس إنسـانا طبيعيا، فكيف يكون نبيا؟

بالإضافة إلى أن هذا من الناحية النفسـية لا يحمـل أي معـنى من معاني الرجولة والشهامة والنبل، فالرجـل الـذي يـأتي زوجتـه كالبهائم من دون مقدمات ليس رجلا أصـلا، بـل ورد في الأحـاديث النهي عن المعاجلة في ذلك، وهذا الحديث يتناقض مع ذلك الهدي النبوي الذي حذر النبي ﷺ أمته من مخالفته..

أما مخالفتها للنقل، فأدلته أكـثر من أن تحصـر.. ويكفي فيهـا تلك النصـوص الـتي حـذر فيهـا رسـول اللـه ﷺ عن حكايـة الحيـاة

[1] رواه البخاري.

[2] رواه البخاري ومسلم.

[3] رواه أبو يعلى في مسنده، وصححه حسـين سـليم أسـد في تعليقـه على مسند أبي يعلى.

الشخصية الخاصة بين الرجل وزوجته.. فكيف يتجـرأ شـخص على حكاية الحياة الشخصية لنبي كريم؟ وما عهدنا ذلك إلا في حكايات الفضائح التي يقوم بها الساسة بعضهم مع بعض.

لكن مع كـل ذلـك نجـد اهتمامـا كبـيرا من لـدن من يسـمون أنفسهم أوصياء على السنة بهذه الأحاديث..

يقول ابن حجر بعـد إيـراده لبعض تلـك الأحـاديث: (وفي هـذا الحديث من الفوائد... ما أعطي النبي ﷺ من القـوة على الجمـاع، وهو دليل على كمال البنية وصحة الذكورية)[1]

بل قام ابن حجر بحساب قوة النبي ﷺ بطريقة بديعـة، فقـال تعليقا على ما رواه زيد بن أرقم: (إن الرجل من أهل الجنة يعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والشهوة والجماع...)[2]: (فعلى هذا يكون حساب قوة نبينا أربعة آلاف)[3]

وقال الصنعاني: (وفي الحديث دلالة على أنـه ﷺ كـان أكمـل الرجال في الرجولية؛ حيث كان له هذه القوة)[4]

ومثلهمـا المنـاوي الـذي راح يسـتنبط المعجـزات من تلـك الأحاديث، فقال: (فإن قلت: هل للتمـدح بكـثرة الجمـاع للنـبي ﷺ من فائدة دينية أو عقلية لا يشـاركه فيهـا غـير الأنبيـاء من البريـة؟ قلت: نعم - بل هي معجزة من معجزاته السنية، إذ قد تواتر تواترا معنويا، أنه كان قليـل الأكـل، وكـان إذا تعشـى لم يتغـد، وعكسـه، وربما طوى أياما، والعقل يقضي بأن كثرة الجمـاع إنمـا تنشـأ عن كثرة الأكل، إذ الرحم يجذب قوة الرجل، ولا يجـبر ذلـك النقص إلا كثرة الغذاء، فكثرة الجماع لا تجتمع مع قلة الغذاء عقلا ولا طبا ولا عرفا، إلا أن يقع على وجه خرق العادة، فكان من قبيل الجمع بين الضدين، وذلك من أعظم المعجزات فتدبر)[5]

وحتى يؤكد أصحاب السنة المذهبيـة أمثـال هـذه التشـويهات الـتي اسـتنبطوا منهـا أصـلا، وهـو أن من خصـائص النـبي قوتـه الشهوانية، فقد رووا عن سـليمان عليـه السـلام مـا ينقضـي دونـه العجب.. ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريـرة

---

[1]) فتح الباري: 1/ 451.

[2]) رواه أحمد.

[3]) فتح الباري :1/ 450.

[4]) سبل السلام، الصنعاني، 6/ 128.

[5]) فيض القدير، المناوي، 1/ 130.

عن النـبي ﷺ قـال: (قـال سـليمان بن داود: لأطـوفن الليلـة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله، فقـال لـه صـاحبه: إن شـاء اللـه. فلم يقـل، ولم تحمـل شـيئا إلا واحـدا ساقطا أحد شقيه. فقـال النـبي ﷺ: لـو قالهـا لجاهـدوا في سـبيل الله)[1]

ومـع أن الحـديث مضـطرب اضـطرابا شـديدا، وقـد اختلفت الروايات في عدد النساء، لكن ما أسـهل أن يلتمس الحـل لـذلك، فقد قال ابن حجر في الجمع بين الروايـات: (فمحصـل الروايـات: ستون، وسبعون، وتسعون، وتسع وتسـعون، ومائـة. والجمـع بينهـا أن الستين كن حرائر، وما زاد عليهن كن سراري أو بالعكس، وأما السبعون فللمبالغة، وأما التسعون والمائة فكن دون المائة وفـوق التسعين، فمن قال تسعون ألغى الكسر، ومن قال مائة جبره- أي أكمـل الكسـر- .. وقـد حكى وهب بن منبـه في المبتـدأ أنـه كـان لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة مهيرة، وسبعمائة سرية)[2]

بعـد هـذه التـبريرات اللامنطقيـة راح المحـدثون يسـتنطون معاني القـوة في حيـاة الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام الـذين هم خلاصة البشر وصفوتهم، فقد قال النووي تعليقا على هذا الحديث: (وفي هذا بيان ما خص بـه الأنبيـاء - صـلوات اللـه تعـالى وسـلامه عليهم - من القوة على إطاقة هذا في ليلة واحـدة، وكـان نبينـا ﷺ يطوف على إحدى عشرة امرأة له في الساعة الواحدة، كمـا ثبت في الصحيحين، وهذا كله من زيادة القوة)[3]

ويقول ابن حجـر: (وفيـه مـا خص بـه الأنبيـاء من القـوة على الجمـاع الـدال ذلـك على صـحة البنيـة، وقـوة الفحوليـة، وكمـال الرجولية، مع ما هم فيه من الاشتغال بالعبادة والعلوم)[4]

ويقول المناوي: (إن سليمان - عليه السلام - تمنى أن يكـون له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطي الملك، وأعطي القوة في الجمـاع؛ ليتم لـه الملـك على خـرق العـادة من كـل الجهـات؛ لأن الملـوك يتخـذون من الحرائـر والسـراري بقـدر مـا أحـل لهم ويستطيعونه، فأعطي سـليمان - عليـه السـلام - تلـك الخصوصـية

---

[1] رواه البخاري ومسلم.

[2] فتح الباري لابن حجر (6/ 460)

[3] شرح صحيح مسلم، النووي: 6/ 2570.

[4] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (6/ 533)..

ليتميز بها عنهم، فكان نساؤه من جنس ملكه الـذي لا ينبغي لأحـد من بعده)[1]

وهكذا استطاعت أمثال هذه النصوص أن تنحرف بـالنبوة عن معناهـا السـامي الـذي قصـده القـرآن الكـريم إلى معـان باهتـة محتقرة تتفق تماما مع المنهج الذي كان يفكر به فرعـون وهامـان ومعاوية ويزيد.

[1] فيض القدير، المناوي، (4/ 659)

من أهم خصائص النبوة التي وردت بها الأدلة العقلية والنقلية خاصية [العلم الشامل]، أو [العلم الراسخ]، وهي خاصية حاولت السنة المذهبية بطرق مختلفة أن تتجاهلها.. بل حاولت في أحيان كثيرة أن تلغيها.. بل صورت القائلين بها بصورة الضالين والمشركين والمغالين.

وهي تتجاهل بذلك كل ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من تعليم الله لنبيه ﷺ من عجائب العلوم وغرائبها مما لا يطيقه عقل الإنسان.

وأول ما يشير إلى هذه الناحية المهمة في الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: 31 - 33]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى العلوم التي تقتضيها الخلافة عن الله، وهي علوم كثيرة جدا إلى الدرجة التي سماها الله تعالى [الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا]، بل إلى الدرجة التي عجزت الملائكة عليهم السلام أن يعرفوها.. وهم من هم.. فإذا كان هذا عظمة العلم الذي لقن لآدم عليه السلام، فكيف بالعلم الذي لقن لرسول الله ﷺ؟

ويشير إلى هذا أيضا قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40] فإذا كان هذا علم صاحب من أصحاب سليمان عليه السلام، وهو علم مرتبط ببعض الكتاب، فكيف بعلم رسول الله ﷺ، وهو علم بكل الكتاب؟

ويشير إلى هذا العلم الذي أوتيه رسول الله ﷺ من لدن الله تعالى ـ أيضا ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]

ويشير إليه قوله ﷺ ـ مخبرا عن نفسه ــ (إنِّي أرى ما لا

ترَون، وأسمع ما لا تسمعون، إنَّ السماء أطت، وحقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)[1]

وهذا الحديث يذكرنا بقوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: 75]

فعلوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علوم رؤية ومشاهدة، وليست علوم تلقين.. لذلك لا يعتريها الخطأ، ولا يصيبها الوهم، ولا يدركها القصور.

وقد أخبر أبو ذر عن بعضِ العلوم التي كان رسول الله ﷺ يحدثهم عنها، فقال: (ولقد تَرَكَنا رسول الله ﷺ وما يُقَلِّب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه عِلمًا)[2]

وعن أبي زيد الأنصاري قال: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا)[3]

وعن حذيفة قال: (قام فينا رسول الله ﷺ قائما، فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون الشيء فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه)[4]

وهكذا وردت الروايات عن رسول الله ﷺ تخبر عن الحقائق العلمية في المجالات المختلفة النفسية والاجتماعية .. بل والطبية والفلكية والجيولوجية وغيرها .. وما غاب عنا أكثر بكثير.

ذلك أن علوم الإنسان الكامل علوم لا تحدها التخصصات، ولا تقيدها.. لأنها إن كانت كذلك كانت علامة جهل كبير.. فالمتخصص مقيد في سجن اختصاصه، ولذلك لا يفسر الأشياء إلا على ضوئها.

فالمسجون في سجن علم الاجتماع ـ مثلا ـ أو في سجن مدرسة من مدارسه يبني مواقفه على أساسها .. وهكذا

---

1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

2) تفسير عبد الرزاق (1/200) وتفسير الطبري (11/348)

3) رواه ابن سعد.

4) رواه أبو داود.

المسجون في سجون علم النفس.. وهكذا المسجون في سـجون التخصصات المختلفة.. حتى التخصصات الدقيقة منها..

ولهذا اختلفت علوم محمـد ﷺ عن كـل أصـحاب تلـك العلـوم اختلافا تاما.. فعلومـه تسـتقي من محيـط صـبت فيـه جميـع بحـار العلوم والمعارف، أو كانت هي مصدر جميع العلوم والمعارف.

ذلك أن علوم رسول الله ﷺ علوم ربانيـة تنبـع من بحـار علم الله الواسع، كما قال الله تعالى مخبرا أن القرآن الكريم نـزل من مشكاة علم اللـه: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْـهَدُ بِمَـا أَنْـزَلَ إِلَيْـكَ أَنْزَلَـهُ بِعِلْمِـهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ (النساء:166)

لهذا، فإننا نجد في القرآن الكريم، وفي تفسـير النـبي ﷺ لـه كل حقائق العلـوم مـا تعلـق منهـا بـالوجود، أو بالحيـاة، أو بتنظيم الحياة.. كل ذلك نجده واضحا جليا في القرآن الكريم وفي السـنة المطهرة.

وقد أشار القـرآن إلى هـذا في قولـه تعـالى: ﴿ وَنَزَّلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ تِبْيَانـاً لِكُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدىً وَرَحْمَـةً وَبُشْـرَى لِلْمُسْـلِمِينَ﴾ (النحل: 89)

فكل الحاجات التي ترتبط بالإنسـان توجـد خلاصـتها في هـذا الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ.. والذي قام محمـد ﷺ في حياتـه جميعا بتفسيره..

وقد يقول البعض هنا: ولكن العلوم كثيرة.. وقـد وضـعت في آلاف.. بل عشرات الآلاف من المراجع الضخمة؟

والجـواب على ذلـك بسـيط، وهـو أن عشـرات الآلاف من الكتب قد يمكن تلخيص ما يفيد منها في كلمات معدودات.. بل قد يمكن تلخيص جهود بشرية طويلة في معادلة واحدة..

فالمعادلة التي تنص على العلاقـة بين كتلـة جسـيم وطاقتـه، والتي تقـول (ط = ك $ث^2$).. أي: الطاقـة = الكتلـة مضـروبة في مربع سرعة الضوء.. قد كتب من أجل الوصول إليها آلاف الأوراق، وبذل من الجهود ـ طيلة تاريخ البشرية ـ ما بذل من أجـل التحقـق منها.. ولم يكن ذلك في علم واحد.. بل في علوم كثيرة.

وقد جـاء محمـد ﷺ بـآلاف المعـادلات الـتي لا تقـل عن هـذه المعادلة..

فاعتبار الصلوات خمسا، وفي أوقـات محـددة معادلـة تحتـاج البشرية إلى آلاف السنين للتحقق من صدقها..

وهكذا اعتباره البنت ترث عند انفرادها النصف، وعنـد التعـدد

الثلثين.. والأم السدس عند تعدد الفرع الوارث أو تعدد الإخوة، والثلث عدا ذلك.. وهكذا في كل المسائل التي وردت في علوم الفرائض.. بل هكذا في كل العلوم التي جاء بها محمد ﷺ..

فالتناسق بينها جميعا في منتهى كماله.. مع أنه لتشريع قانون بسيط نحتاج إلى تخصصات كثيرة مختلفة.

فالتشريعات التي جاء بها محمد ﷺ تخدم الفرد والمجتمع.. وتخدم الجسد والنفس والعقل والقلب.. وتخدم الدنيا والآخرة.. ولا تضر فوق ذلك بشيء من الأشياء دق أو جل.

بعد هذا التقرير المختصر عن هذه البديهية التي دل عليها العقل والنقل، نرى السنة المذهبية تقف موقفا سلبيا ساخرا من هذه الناحية من نواحي العظمة في شخص رسول الله ﷺ.

وكمثال على ذلك تلك الانتقادات الشديدة التي ووجه بها البوصيري على قوله في البردة:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فقد قال بعضهم ردا عليه: (مثل هذهِ الأوصاف لا تصح إلا لله – عز وجل – وأنا أعجب لمن يتكلم بهذا الكلام إن كان يعقل معناهُ كيف يسوّغ لنفسهِ أن يقول مُخاطباً النبي ﷺ:)فإن من جودك الدنيا وضرتها)، (ومن) للتبعيض، والدنيا هي الدنيا وضرتُها هي الآخرة، فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول عليه الصلاة والسلام – وليس كل جودهِ فما الذي بقي لله عز وجل ؟ ما بقي لهُ شيء من الممكن لا في الدنيا ولا في الآخرة وكذلك قولهُ: ومن علومك علم اللوح والقلم. (ومن) هذه للتبعيض ولا أدري ماذا يبقى لله تعالى من العلم إذا خاطبنا الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب؟)[1]

وهذا النص يرينا مدى محدودية القدرة الإلهية والعلم الإلهي لدى هؤلاء.. وكيف لا يكونون كذلك، وهم يعتقدون محدودية الذات الإلهية، والتي لا تساوي في عقائدهم التي يسمونها [عقائد السنة] بعض الأجرام السماوية التي يمتلئ بها الفضاء الفسيح.

ومن مظاهر تهوين السنة المذهبية لهذه الخاصية العظيمة من خواص النبوة ـ زيادة على هذا الموقف العام ـ قصر أصحاب السنة المذهبية علم رسول الله ﷺ على الأمور الدينية، ويستندون

[1] الكلام لابن العثيمين في بعض دروسه.

في ذلك إلى ذلك الحديث الخطير الذي جعلوا منه معولا هدموا به كل ما ورد في النصوص المقدسة من شمولية علم رسول الله ﷺ.

والحديث هو ما روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وهم يلقحون النخل، فقال: (ما تصنعون ؟) قالوا: كنا نصنعه، قال: (لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا)، فتركوه، فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له فقال: (إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر)[1]

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لهم: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)

وفي رواية: (إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به، فإذا كان من أمر دينكم فإلي)

بل في رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لهم: (لو لم تفعلوا لصلح)[2]

ولكثرة الروايات الواردة في هذا الحديث ذكر بعضهم أن الحادثة متعددة، أي أن رسول الله ﷺ مر على ناس متعددين، وأخبرهم بأن التأبير لا منفعة فيه.. ثم تبين للجميع أن أخذهم بنصيحة رسول الله ﷺ أضرت بهم.. وحينذاك بين لهم رسول الله ﷺ أن غرضه من ذلك أن يذكر لهم أنهم أعلم بأمور دنياهم.. وأنهم لا ينبغي أن يأخذوا منه كل شيء.

والعجيب بعد ذلك كله أن يكون ذلك في أول مقدمه ﷺ للمدينة المنورة، وبذلك تكون أول نصيحة قدمها رسول الله ﷺ للفلاحين فيها نصيحة أضرت بهم، وبمنتوجهم الذي يعتمدون عليه في حياتهم.

ولست أدري كيف لم تمرر هذه الرواية على عقول المحدثين الذين زجوا بها في كتبهم، وكأنها حقيقة مقررة..

ولست أدري لم لم يعرضوها على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3، 4]؟

ولست أدري لم لم يعرضوها على ما ورد في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء ؟ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن

---

[1]) رواه مسلم..

[2]) رواه مسلم .

الكتـاب، فـذكرت ذلـك لرسـول اللـه ﷺ، فأومـأ بإصـبعه إلى فيـه فقال: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق)[1]

ثم بعـد هـذا: هـل يمكن لأي عاقـل أن يتلاعب بـأرزاق الـذين يثقون فيه من أجل أن يقول لهم: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) مع أنه كان يمكن أن يقولها لهم من غير أن يكلفهم شيئا؟

ولم تقف هذه الرواية عند المحدثين، بل انتقلت إلى كثير من الباحثين الذين صارت لهم جرأة بسببها على جميـع أقـوال رسـول الله ﷺ.. حتى صـار أي صـعلوك يقـرأ حرفـا من العلم يـذهب إلى كتب الحديث، ثم يقرر بكل بسـاطة أن رسـول اللـه ﷺ أخطـأ في وصفه لتلك الوصفة، أو في ذكره لتلك القضية.

وكمثـال على ذلـك الموقـف من الأحـاديث الـتي وردت في بعض المسائل الطبية، وهو موقف كان يمكن قبولـه لـو بـني على التشكيك في صحة الحـديث من حيث الثبـوت.. لكن المشـكلة أن هؤلاء المشككين لم يتجرؤوا على ذلك مخافـة أن يـرميهم النـاس بالبدعـة.. فراحـوا يشـككون في صـحة مـا ذكـره رسـول اللـه ﷺ نفسه.. وكـأن وثاقـة المحـدثين والـرواة عنـدهم أعظم من وثاقـة رسول الله ﷺ.

ومن الأمثلة على ذلك هذا النص الذي كتبه بعض المعاصرين، وتلقاه الكثير من أبناء السنة المذهبية بترحيب كبير، يقول فيه: (لا يجب أن يكون اعتقاده ﷺ في أمور الدنيا مطابقـا للواقـع، بـل قـد يقع الخطأ في ذلـك الاعتقـاد قليلا أو كثـيرا، بـل قـد يصـيب غـيره حيث يخطئ هو ﷺ.. وليس في ذلك حطٌّ من منصبه العظيم الـذي أكرمـه اللـه بـه؛ لأن منصـب النبـوة مُنصـب على العلم بـالأمور الدينية: من الاعتقاد في الله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخـر، ومن الأمور الشرعية. أما إن اعتقد دواء معينـا يشـفي من مـرض معين، فـإذا هـو لا يشـفي منـه، أو أن تـدبيرا زراعيـا أو تجاريـا أو صناعيا يؤدي إلى هدف معين، فإذا هو لا يؤدي إليـه، أو يـؤدي إلى عكسه، أو أن تدبيرا عسـكريا أو إداريـا سـينتج مصـلحة معينـة، أو يدفع ضررا معينا، فإذا هو لا يفعل، فـإن ذلـك الاعتقـاد لا دخـل لـه بالنبوة، بل هو يعتقده من حيث هو إنسان، لـه تجاربـه الشخصـية، وتأثراته بما سبق من الحوادث، وما سـمع أو رأى من غـيره؛ ممـا أدى إلى نتائج معينة. فكل ذلك يؤدي إلى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشر، ثم قد ينكشف الغطاء فإذا الأمر على خلاف ما ظن أو

---

[1]) رواه أبو داود.

اعتقد)[1]

وليت الأمـر اقتصـر على هـؤلاء المعاصـرين، بـل تعـداه إلى بعض السابقين الذين خيل لهم أن رسول اللـه ﷺ قـد يقـول مـا لا حقيقة واقعية له.

ومن أمثلــة هــؤلاء ابن خلــدون الــذي تجــرأ فقــال: (الطب المنقـول في الشـرعيات من هـذا القبيـل، وليس من الـوحي في شيء، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب، ووقع في ذكر أحوال النـبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلـة، لا من جهـة أن ذلـك مشـروع على ذلـك النحـو من العمـل، فإنـه ﷺ إنمـا بعث ليعلمنـا الشـرائع، ولم يُبعث لتعريـف الطب ولا غـيره من العاديـات. وقـد وقع لـه في شـأن تلقيح النخـل مـا وقـع، فقـال: (أنتم أعلم بـأمور دنيـاكم...)؛ فلا ينبغي أن يُحمـل شـيء من الطب الـذي وقـع في الأحاديث المنقولة على أنه مشـروع، فليس هنـاك مـا يـدل عليـه، اللهم إذا استعمل على جهة التبرك وصدق القصد الإيماني، فيكون له أثر عظيم النفع، وليس ذلك في الطب المزاجي)[2]

ومثله قال القاضي عيـاض: (أمـا أحوالـه ﷺ في أمـور الـدنيا؛ فنحن نسبرها على أسلوبها المتقدم بالعقـد والقـول والفعـل؛ أمـا العقد منها، فقد يعتقد في أمـور الـدنيا الشـيء على وجـه ويظهـر خلافه، أو يكـون منـه على شـك أو ظن بخلاف أمـور الشـرع - ثم ذكر حديث تأبير النخل - ثم قال: وهذا على ما قررنـاه فيمـا قالـه من قبل نفسه في أمـور الـدنيا وظنـه من أحوالهـا لا مـا قالـه من قبل نفسه واجتهـاده في شـرع شـرعه وسـنة سـنها.. فمثـل هـذا وأشــباهه من أمــور الــدنيا الــتي لا مــدخل فيهــا لعلم ديانــة، ولا اعتقادها ولا تعليمها، يجوز عليه فيهـا مـا ذكرنـاه، إذ ليس في هـذا كله نقيصة ولا محطة، وإنما هي أمـور اعتياديـة يعرفهـا من جربهـا وجعلها همه وشغل نفسه بها، والنـبي ﷺ مشـحون القلب بمعرفـة الربوبية، ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البـال بمصـالح الأمـة الدينية والدنيوية)[3]

ومن الأمثلة على تلـك الجـرأة على رسـول اللـه ﷺ مـا كتبـه

---

[1] انظر ملفا بعنوان [الطب النبوي .. رؤى نقدية أحـاديث "الطب النبـوي".. هل يُحتج بها] على إسلام أن لاين وغيره من المواقع.

[2] المقدمة: ص493 .

[3] الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 2 /183- 185.

بعضهم حول النصوص الكثيرة التي يحث فيها رسول اللـه ﷺ على استعمال السواك، فقد قال بعد إيراده لها، واعترافه بصحتها: (إن ظاهر الحديث هو الأمر بالسواك، أما مقصد الحديث فهو نظافة الفم، ولما كان السواك هو الوسيلة المستخدمة في نظافة الفم والأسنان في ذلك الزمان فإن الرسول ﷺ أمر باستخدامه، ولكن السؤال المطروح الآن هو: إذا ما توفرت وسيلة عصرية لنظافة الفم والأسنان أفضل من السواك أليس من الأفضل الاستغناء بهذه الوسيلة عن السواك؟. ولقد حاول كثير من أدعياء الطب النبوي إثبات أن السواك أفضل من معاجين الأسنان والفرشاة، ولكن دون جدوى حيث انصرف أغلب الناس إلى المعجون والفرشاة، ولما يئس أدعياء الطب النبوي من إقناع الناس بالأخذ بظاهر الحديث استحدثوا معاجين أسنان من خلاصة السواك. وحتى هذه المعاجين لم يكتب لها النجاح أيضًا، وبقيت الفرشاة والمعاجين التقليدية أكثر فاعلية وأكثر انتشارًا في نظافة الفم والأسنان، بالإضافة إلى أن الفرشاة سهلة التنظيف والحفظ، كما أن المعاجين المطروحة للاستخدام تُصنع بطريقة علمية وصحية سليمة، وتضاف إليها مواد لمقاومة التسوس ونخر الأسنان. ولقد ثبت أن الاعتماد على السواك دون الفرشاة والمعجون هو واحد من الأسباب الرئيسية لتفشي ظاهرة تسوس الأسنان في بعض المجتمعات الإسلامية، كما أنه قد يكون وسيلة لنقل العدوى والأمراض حيث يصعب تنظيفه وحفظه. وإذا استحدثت مستقبلاً طريقة لنظافة الفم والأسنان أفضل من الفرشاة والمعجون فلا مانع من ترك الفرشاة والمعجون إلى هذه الطريقة)[1]

وهذا كلام خطير، وناتج عن جهل ودعوى أيضا.. لأن رسول اللـه ﷺ كان في إمكانه أن يأمر بتنظيف الفم من دون ذكر الوسيلة المرتبطة بذلك.. وذكره للوسيلة، بل ربطها ببعض الشعائر التعبدية يدل على أن الوسيلة في ذاتها مطلوبة، وأن لها تأثيرها الذي لاشك فيه.

ونحن نوقن أن الأمة لو التزمت بهذه السنة في كل محل، وبعد كل أكل، كما كان يفعل رسول الله ﷺ لما احتاجت إلى طب أسنان.. ولذلك فإن تلك الدعوى بأن الذين التزموا بسنة رسول الله ﷺ في السواك لم تنفعهم تلك السنة جرأة كبيرة على رسول

---

[1]) انظر مقالا بعنوان [الطب النبوي .. رؤى نقدية] على موقع إسلام أون لاين، مع العلم أن الموقع تتبناه تيارات الإسلام السياسي.

الله ﷺ.

ومن الأمثلـة الخطـيرة على هـذه الظـاهرة أيضـا ــ ظـاهرة الجرأة على تكذيب رسـول اللـه ﷺ ـ ذلـك الحـديث الـذي يرويـه أصـحاب السـنة المذهبيـة كثـيرا، ويوردونـه في محـال مخصوصـة للانتصار لبعض الصحابة أو الطلقاء على حساب مصـداقية رسـول الله ﷺ.

وذلك الحديث هو ما رواه البخاري ومسلم وغيرهمـا من غـير وجه عن جماعة من الصحابة.أن رسول اللـه ﷺ قـال: (اللهم إنمـا أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لـذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة)

وهذا الحديث الخطير يشوه رسـول اللـه ﷺ تشـويها عظيمـا، فهو يرسمه بصورة الظالم الذي يسارع إلى سب النـاس وجلـدهم والدعاء عليهم من غير استحقاق منهم لذلك، ثم يعتـذر لـذلك بـأن يدعو لمن فعل بهم ذلك أن يتحول ما فعله بهم من أنواع الإهانات كفارة ورحمة.

وهذا يتنافى تماما مع تلك الصورة الجميلة التي صور القرآن الكريم بها رسول الله ﷺ، وصورته بها الأحاديث الكثيرة.

والغرض من كل هذا التشويه هو تحويل تلـك الـدعوات الـتي دعي بها على معاوية ومن هو من صنوه إلى رحمة وكفارة وقربة.

يقول ابن كثير في (البداية والنهاية) عند ترجمتـه لمعاويـة بن أبي سفيان: (وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه.. أما في دنياه: فإنه لما صار إلى الشام أميرا، كان يأكل في اليوم سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير، وبصل فيأكـل منهـا، ويأكـل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا، ويقول : والله مـا أشـبع وإنمـا أعيـا، وهـذه نعمـة ومعـدة يـرغب فيهـا كـل الملوك.. وأما في الآخرة: فقد أتبع مسـلم هـذا الحـديث بالحـديث الــذي رواه البخــاري وغيرهمــا من غــير وجــه عن جماعــة من الصحابة.أن رسول الله ﷺ قـال: (اللهم إنمـا أنـا بشـر فأيمـا عبـد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة)[1]

وقد أيده في قوله هذا النووي فقال: (وقد فهم مسلم رحمـه اللـه من هـذا الحـديث أن معاويـة لم يكن مسـتحقا للـدعاء عليـه، فلهذا أدخله في هذا الباب، وجعلـه غـيره من منـاقب معاويـة لأنـه

---

[1]) البداية والنهاية: 8/ 128.

في الحقيقة يصير دعاء له)[2]

[2]) المنهاج: 16/156.

رسول الله .. والحكمة

من أبرز خصائص الرسـل عليهم الصـلاة والسـلام، وكـل من يتولى الوساطة بين الله وعباده [الحكمة]، وهي تعني وضع الأمور في مواضعها الصحيحة: إما بإرشاد مباشر من الله تعالى ويسـمى ذلك إلهاما ووحيا، وإما لذلك الصفاء والقدسية التي تتسم بها روح المصطفى وقلبه ونفسه وكل لطائفه.

فلذلك تكون قدرات الرسول الإدراكية أكبر بكثير من قـدرات غيره من الذين لم يؤتوا مثلما أوتي من الصفاء والقدسية.

ذلـك أن الـذكاء والـذاكرة وحـدة الـذهن ودقـة الملاحظـة واستبصار العواقب وغـير ذلـك ممـا تحتـاج إليـه الحكمـة لا يكـون لامرئ إلا بسبب ما في قابليته من الصفاء والطهارة والهمة.

وانطلاقا من هذا فإن كل ما ينـاقض هـذه الصـفات مسـتحيل على الرسل عليهم الصلاة والسـلام.. فيسـتحيل على الرسـول أن يكون أبله أو غبيا أو مغفلا أو غير ذلك من النقائص التي يتـبين من خلالها نقص جوهره، وضعف إدراكه.

والاسـتدلال العقلي على هـذا بسـيط جـدا .. ذلـك أن الـذي اسـتطاع أن يعـاين الملكـوت لن يعجـز عن معاينـة الملـك، ومن استطاع أن يتواصـل مـع عـالم الغيب لن يعجـز عن التواصـل مـع عالم شهاده.

أو بعبـارة أخـرى من اسـتطاع أن تمتـد عينـاه للأفلاك العليـا، فيرى من أسرارها ما لا يراه غيره لن يعجز أن يبصر ما هو أمامه.

أو بتقـريب آخـر للمعاصـرين: من اسـتطاع أن يحـل أعقـد المسـائل الرياضـية لن يعجـز عن حـل مسـألة جمـع أو طـرح أو ضرب.

وما دل عليه العقـل في حـق هـؤلاء الكمـل، دل عليـه النقـل كذلك.

فقـد أخـبر اللـه تعـالى عن الـذكاء الـذي آتـاه لرسـله عليهم الصلاة والسلام:

ومن الأمثلة على ذلك ما قصه علينا من قصة داود وسـليمان وحكمهمـا في الحـرث، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُـلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَـانِ فِي الْحَـرْثِ إِذْ نَفَشَـتْ فِيـهِ غَنَمُ الْقَـوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًـا﴾ [الأنبيـاء: 78، 79]

وهكـذا أخـبر اللـه تعـالى عن جميـع الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام أنهم أوتوا علما وحكمة.. لأنه لا يمكن للرسـول أن يـؤدي وظيفته الخطيرة وهو خال من العلم والحكمة.

بل أخبر الله تعالى أن الحكمة ليسـت خاصـة بالرسـل عليهم الصلاة والسلام، حيث ذكر عن لقمان عليه السلام أنه كان حكيما، وأنه بسبب حكمته عرف كيـف يوجـه ولـده، وكيـف يربيـه، وكيـف يعمق فيه المعاني الإيمانية.

وهكذا أخبر أنه ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]

ويستحيل أن يؤتي الله الحكمة لأفـراد خلقـه ممن لم يكلفـوا بمثل تلـك الوظيفـة العظيمـة الـتي كلـف بهـا رسـول اللـه ﷺ، ثم يحرم رسول الله ﷺ منها.

ذلك أن سيادة رسـول اللـه ﷺ على بـني آدم ــ كمـا ورد في الحـديث ــ تقتضـي تقدمـه عليهم في كـل الفضـائل.. وأهم تلـك الفضائل العلم والحكمة.

وقد أشار إلى الحكمة التي أوتيها رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء: 39]

وهذا يدل على أن حكمة رسول الله ﷺ ليست ذكـاء مجـردا، ولا عبقرية بشرية محدودة، بل هي حكمة مسددة من الملأ الأعلى متواصلة تواصلا دائما معها.

ولذلك يسـتحيل على من هـذا حالـه أن يحتـاج إلى غـيره في مشورة قبل العمل، ولا في تعقيب عليه وتصحيح له بعد العمل.

وقـد أشـار إلى هـذا قولـه ﷺ عن الشـورى: (أمـا إنَّ اللـه ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها اللـه تعـالى رحمـة لأمـتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيًّا)[1]

وهذا يصدق ما ورد في القرآن الكريم عندما أمر اللـه تعـالى رسوله ﷺ باستشارة أصـحابه، فقـد جعلهـا من مقتضـيات رحمتـه بهم، وتأليفه لقلوبهم، كما قال تعـالى: ﴿فَبِمَـا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَـوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيـظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّـوا مِنْ حَوْلِـكَ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]

ومثل ذلك مثل الأستاذ الذي يتيح لطلبته أن يدلوا بـآراهم في مسألة من المسائل، ثم يظهر عجبه من عبقـريتهم وذكـائهم، وإن كان هو نفسـه يعلم بـذلك مسـبقا.. ولكن رحمتـه بهم تجعلـه ينهج

[1]) رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب.

ذلك المنهج.

وقد ورد مثل هذا في شمائل رسول الله ﷺ فقد وصفه هند بن أبي هالة بقوله: (يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق)[1]

وقريب منه ما وصف به أنس رسول الله ﷺ، فقد قال: (كان إذا لقيه أحد من أصحابه فتناول أذنه، ناوله إياها، ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه)[2]

وقريب من ذلك أيضا ما ورد النصوص في القرآن الكريم من عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ، وهو عتاب المحب لمحبه، فعندما التأمل في مواردها نجدها جميعا تنبعث من رحمة رسول الله ﷺ بمن يرى أنه أمر بأن يؤلف قلوبهم.

ولذلك فإن عتاب الله لنبيه في تلك المواضع ليس عتابا حقيقيا، وإنما هو من باب [إياك أعني واسمعي يا جارة]

وكمثال تقريبي له أن يقول الولد لمعلم ابنه: لم لم تعاقبه عندما أخطأ.. ولم لنت له مع أنه كان في إمكانك أن تعاقبه؟ وهو لا يقصد بذلك عتاب المعلم، وإنما يقصد توجيه اللوم لابنه وتربيته من خلال ذلك.

وعلى مثل هذا يفسر قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: 1]، فقد كان ﷺ يشعر أنه مأمور بأن يحسن لزوجاته، وأن يعطي المثل للمؤمنين في الرفق بهن مهما أسأن التصرف معه، ولذلك كان يسعى في مرضاتهن، لا لأجلهن، وإنما لأجل تحقيق عبودية الله في التعامل معهن، ولهذا نبهه الله، أو نبههن بطريق غير مباشر إلى أن يراعين حسن العشرة مع رسول الله ﷺ.. ولهذا جاء بعد تلك الآيات ذلك التهديد الشديد لنساء النبي ﷺ إن أسأن العشرة معه، قال تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)﴾ [التحريم: 4، 5]

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [التوبة: 43]،

---

[1]) شمائل الترمذي.

[2]) رواه ابن سعد.

فقد كان النــبي ﷺ لصــفاء روحــه، ورحمتــه ورأفتــه يقبــل كــل من اعتذر له حتى لو كان يعلم كذبه حرصا عليه ورحمة به، فنبهه اللــه أو نبههم إلى أن إذن رسول الله ﷺ لا ينفع إلا الصادقين.

ومثل هذا أيضا تلك الرحمة التي كـان يبـديها رسـول اللـه ﷺ مع المنافقين، والتي تصور البعض أنه كان مخطئا فيهـا حـتى جـاء من جاء ليصحح له خطأه.

ونفس الأمــر يقــال في كــل كــل مــا ورد في الروايــات من استشارته ﷺ لأصـحابه، فلم تكن عن نقص حكمـة، ولا عن حاجتـه لهم، وإنما كان تأليفا لقلوبهم وتربية لهم.

هذا ما يدل عليه العقل والنقل.. لكن السنة المذهبية نظــرت إلى ذلك نظرة أخرى جردت فيها رسـول اللـه ﷺ من كـل معـاني الحكمة والذكاء والبصيرة، وجعلته عاجزا ينتظر ما يقرره أصحابه.. بل أوقفته في بعض الأحيان مواقف ضعف شـديد لتـبرز من خلال تلــك المواقــف قــدرة الصــحابة وذكــاءهم وحكمتهم وأن اللـــه اصطفاهم لرسوله وأنه لولاهم لنزل به العذب، ولأخرج من ديـوان النبوة.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن نحصيها في هذا المحـل.. لكنـا سنتكفي ببعضها، ونحن نستغفر من تلك الجرأة على رسـول اللـه ﷺ.

وأولها ما سبق أن ذكرناه مما يسمونه موافقات عمر، والـتي ألفت فيها الكتب التي حاول أصـحابها ــ من أجـل إعطـاء المزيـد من القدسية للصحابة ــ أن يعتـبروا عمـر هـو صـاحب الفضـل في تلك الأحكام الإلهية.. وهو ما يعطي بعد ذلـك ذريعـة لكـل مشـكك في أن يعتبر عمـر ممن أسسـوا هـذا الـدين، وممن وضـعوا بعض الأحكام المرتبطة به..

فمن تلك الموافقات: الصلاة عنـد مقـام إبـراهيم، والـتي ورد بشأنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(البقــرة: 125)

ومنها دعوتـه للحجـاب، والـذي نـزل في شـأنه قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَـابٍ ﴾ (الأحــزاب: 53)

ومنهـا قولـه لأمهـات المؤمـنين: ﴿عَسَـى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ ....﴾ (التحريم: 5)، فنزلت كما قال.

ومنها ما ورد في تحريم الخمر في عدة آيـات، كقولـه تعـالى يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (البقـرة: 219)، وقولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـواْ لاَ تَقْرَبُـواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُـكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُـواْ مَـا تَقُولُـونَ (النسـاء: 43)، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالأَنصَـابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَـلِ الشَّـيْطَانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ (المائدة: 90)

ومنها ما ورد في سورة المؤمنون من قوله تعالى: فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (المؤمنون: 14)

ومنها الصلاة على المنافقين عند موتهم في واقعة موت عبـد الله ابن أبي ابن سلول ونزول قـول اللـه تعـالى: وَلاَ تُصَـلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ(التوبة: 84)

ومنهـا الإسـتغفار للمنـافقين، قـال تعـالى: سَـوَاء عَلَيْهِمْ أَسْـتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْـتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِـرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المنافقون: 6)

ومنها واقعة الإفك في قوله تعالى: وَلَوْلَا إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُـونُ لَنَـا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـذَا سُـبْحَانَكَ هَـذَا بُهْتَـانٌ عَظِيمٌ (النـور: 16)

ومنها مسـألة معاشـرة الصـائم لزوجتـه، وقـول اللـه تعـالى: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ .... (البقرة: 187)

ومنها واقعة اليهود وعداوة جبريل وقول الله تعالى: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّـهِ مُصَـدِّقاً لِّمَـا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (البقرة: 97)

ومنها واقعة قتل عمر لمن رفض حكم رسول الله حيث قـال تعالى: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَـا شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْـلِيماً (النسـاء: 65)

ومنها واقعة الإستئذان في الدخول وقول الله تعالى: يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَـدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْـرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النور: 27)،

ومنها حكمه في أسارى بدر، فنزلت كما ذكـر:مَـا كَـانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ... (الأنفال: 67)

وفي هـذا المقـام يـذكر الخطبـاء والوعـاظ كثـيرا، وببعض التباهي أن رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية :مَـا كَـانَ لِنَبِيٍّ أَن

يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ (الأنفال: 67) قال: (لو نزلت نار من السماء لأحرقتنا إلا عمر)[1]

وكعادة الخطباء فإنهم يمططون هذه القصة، ويضيفون إليها بعض التوابل ليخرج الناس منبهرين بعبقرية عمر وذكائه وحكمته، وينسوا أنهم خرجوا أيضا وقد بنوا كل ذلك البنيان على حساب تقديرهم لرسول الله ﷺ.. ولكن أصحاب السنة المذهبية لا يهمهم رسول الله ﷺ بقدر ما يهمهم عمر.

ونحن لا يهمنا أن يقدروا عمر أو غيره من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم.. ولكن لا على حساب رسول الله ﷺ.. فنحن مأمورون بالتأسي برسول الله ﷺ وتعظيمه وتعزيرة وتوقيره.. ولسنا مأمورين بفعل ذلك مع غيره.

ومن الأمثلة على هذا، والمرتبطة كذلك بعمر ما وقع فيما اصطلح عليه المحدثون برزية الخميس، وهي حادثة خطيرة، جعلت ابن عباس ـ كما ورد في الحديث الصحيح ــ كلما ذكرها يشعر بالألم والحزن، ويقول: (يوم الخميس، وما يوم الخميس؟)، ثم يبكى حتى يبل دمعه الحصى[2].

وسنورد الرواية هنا، ثم نبين مواقف أهل السنة المذهبية منها، والرواية هي ــ حسب ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس ـ قال: (لما حضر رسول الله، وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب، قال النبي ﷺ: (هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده)، فقال عمر: (إن النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله)، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو، والاختلاف عند النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (قوموا)، قال عبيد الله: (راوي الحديث عن ابن عباس، وهو ابنه): فكان ابن عباس يقول: (إن الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم، ولغطهم)[3]

بعد إيرادنا لهذ الحديث الخطير لا يعنينا هنا البحث عمن رمى رسول الله ﷺ بالهجر الذي يعني الخرف والهذيان وعدم العقل..

---

[1]) ذكر القصة الطبري وابن كثير والقرطبي وابن العربي والماوردي وغيرهم.

[2]) رواه البخاري ومسلم.

[3]) رواه البخاري.

ولا يعنينا كذلك البحث عن الوصية التي كـان رسـول اللـه ﷺ يود أن يبلغها أمتـه، لأن ذلـك في كـل الأحـوال يبقى غيبـا مخزونـا نتأسف عليه ونحزن حزنا شديدا، لأن رسول الله ﷺ أخبر أنهم لـو طبقوا ما في ذلك الكتاب لم يضلوا أبدا..

ولا يعنينا تلك المقولة الخطـيرة (حسـبنا كتـاب اللـه)، والـتي تعني الاكتفاء بالكتاب عن السنة، وهو ما أشار إليه ﷺ في قوله: (يوشك الرجل متكئا في أريكته، يحدث بحـديث من حـديثي فيقـول بيننا وبينكم كتاب الله، فمـا وجـدنا فيـه من حلال اسـتحللناه، ومـا وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول اللـه مثـل مـا حرم الله)[1]

وإنما الذي يعنينا هنـا هـو ذلـك الموقـف المخجـل من شـراح الحديث، والذين راحوا من أجل تبرئة سـاحة من حـال بين رسـول الله ﷺ وبين كتابة وصيته الأخيرة، يتهمون رسـول اللـه ﷺ بأنـه لم يكن أهلا في ذلك الحين لإملاء الوصية.

ومن أمثلة ذلك ما قاله المازري عن هذه الحادثةـ فقـد قـال: (إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتـاب مـع صـريح أمـره لهم بذلك، لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنه ظهـرت منه أي من كلام الرسول ﷺ قرينـة دلت على أن الأمـر ليس على التحتم، بل على الاختيـار، فـاختلف اجتهـادهم، و صـمم عمـر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غـير قصـد جازم، و عزمه ﷺ كان إما بالوحي وإما بالاجتهاد، و كذلك تركـه إن كان بالوحي فبالوحي وإلا فبالاجتهاد أيضاً ..)[2]

وما قاله عجيب جدا، فكيف يقال لأمر رسول اللـه ﷺ أنـه لم يكن على سـبيل الحتم واللـزوم، وقـد ورد في القـرآن الكـريم التشديد على إجابـة رسـول اللـه ﷺ مطلقـا، قـال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، بل حذر بعدها من الفتنـة الـتي قـد تنجـر من عـدم إجابته، فقال:﴿ وَاتَّقُـوا فِتْنَـةً لَا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْكُمْ خَاصَّـةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: 25]

ثم كيـف يقـال بـأن ذلـك الأمـر لم يكن على سـبيل الحتم واللزوم، وقد قال ﷺ مبينا أهميته وخطره: (هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده)، فهل هنـاك شـيء أهم من عـدم الضـلال.. بـل عـدم

---

[1] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة ...

[2] كما نقله الحافظ في الفتح (7/740).

الضلال الأبدي.
لكن غلبة المعايير التي وضعها أهل السنة المذهبية تعمي وتصم، لأنها تجعل صاحبها يؤول كل شيء في سبيل تلك المعايير التي يقدسها أكثر مما يقدس رسوله.
وقريب مما ذكره المازري ما ذكره البيهقي في (دلائل النبوة) عندما قال: (إنما قصد عمر التخفيف على رسول الله ﷺ حين غلبه الوجع، ولو كان مراده ﷺ أن يكتب ما لا يستغنون عنه لم يتركه لاختلافهم ولا لغيره لقوله تعالى ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 67] كما لم يترك تبليغ غير ذلك لمخالفة من خالفه و معاداة من عاداه، و كما أمر في ذلك الحال بإخراج اليهود من جزيرة العرب و غير ذلك مما ذكره في الحديث)[1]
وما ذكره البيهقي لا يقل غرابة عما ذكره المازري، لأنه يتنافى مع ما ورد في الحديث من الاهتمام بالوصية، أما ترك رسول الله ﷺ للكتابة، فليس تقصيرا منه ﷺ، وإنما يفسر الأمر فيها كما يفسر سكوته عن تحديد ليلة القدر بعدما حصل التنازع.
ففي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا ليلة القدر فتلاحى (أي تخاصم وتنازع) رجلان من المسلمين، فقال: (خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرُفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة)[2]
وهكذا كان التنازع سببا في الحرمان من تحديد ليلة القدر .. لأنها نعمة كبرى.. فلما لم يقدروها حق قدرها حرموا من ذلك.. وهكذا كان حرمانهم من تلك الوصية العظيمة بسبب التنازع.. لأنه حصل له علم ﷺ بأن هؤلاء الذين اجترأوا على التنازع بين يديه لن يصعب عليهم أن يمزقوا وصيته أو يؤولوها أو يفعلوا بها أي شيء.
ولا يقل عما ذكره المازري والبيهقي من التأويل ما ذكره القرطبي حين قال: (ائتوني أمر، و كان حق المأمور أن يبادر للامتثال، لكن ظهر لعمر رضي الله عنه مع طائفة أنه ليس على الوجوب، و أنه من باب الإرشاد للأصلح، فكرهوا أن يكلفوه من ذلك ما يشق عليه في تلك الحالة مع استحضارهم لقوله تعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ و قوله تعالى ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ و لهذا قال عمر: حسبنا كتاب الله، و ظهر لطائفة أخرى

[1]) نقله عنه النووي في شرح مسلم (11/132).
[2]) رواه البخاري.

أن الأولى أن يكتب لمـا فيـه من زيـادة الإيضـاح، و دل أمـره لهم بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار، و لهذا عاش ﷺ بعـد ذلـك أيامـاً و لم يعـاود أمـرهم بـذلك، و لـو كـان واجبـاً لم يتركـه لاختلافهم، لأنـه لم يـترك التبليـغ لمخالفـة من خـالف، و قـد كـان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجـزم بـالأمر فـإذا عـزم امتثلوا)[1]

أما النووي فقد نقل إجماع الشراح على أن الحكمة كانت مع عمر وغيره من الصحابة الذين منعوا النبي ﷺ من الكتابة، فقـال: (أما كلام عمر رضي الله عنه فقـد اتفـق العلمـاء المتكلمـون في شـرح الحـديث على أنـه من دلائـل فقـه عمـر و فضـائله و دقيـق نظره، لأنه خشي أن يكتب ﷺ أموراً ربما عجـزوا عنهـا واسـتحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا محالـة للاجتهـاد فيهـا، فقـال عمـر: حسبنا كتاب الله لقوله تعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شـيء ﴾ وقولـه تعـالى ﴿ اليـوم أكملت لكم دينكم ﴾ فعلم أن اللـه تعـالى أكمل دينه فأمن الضلالة على الأمة وأراد الترفيه على رسول اللـه ﷺ، فكان عمر أفقه من ابن عباس و موافقيه)[2]

أما شيخ الإسلام البشري، وإماما السنة المذهبية ابن تيميـة، فقد استطاع بذكائه اللامحدود، وبحكمته اللانهائيـة أن يكتشـف مـا في ذلك الكتاب الذي لم يمله ﷺ، فقال ـ بكل جرأة ـ: (الذي وقـع في مرضه كان من أهون الأشياء وأبينها، وقد ثبت في الصحيح أنّه قال لعائشـة في مرضـه: (ادعي لي أبـاك وأخـاك حتّى أكتب لأبي بكر كتابـاً لا يختلـف عليـه النـاس من بعـدي)، ثم قـال: يـأبى اللـه والمؤمنون إلّا أبا بكر، فلمّا كـان يـوم الخميس همَّ أن يكتب كتابـاً فقـال عمـر: مالـه أهجـر؟ فشّـك عمـر هـل هـذا القـول من هجـر الحمى؟ أو هو ممّا يقول على عادتـه؟ فخـاف عمـر أن يكـون من هجر الحمى، فكان هذا ممّا خفى على عمر، كما خفى عليه مـوت النبي ﷺ بل أنكره، ثمّ قال بعضهم: هـاتوا كتابـاً، وقـال بعضـهم: لا تأتوا بكتاب، فرأى النبي ﷺ أنّ الكتاب في هذا الوقت لم يبق فيـه فائدة ؛ لأنّهم يشكون هل أملاه مع تغيره بـالمرض أم مـع سـلامته من ذلك، فلا يرفع النزاع، فتركه، ولم تكن كتابة الكتاب ممّا أوجبه الله عليه أن يكتبه أو يبلغه في ذلك الوقت ؛ إذ لو كان كـذلك لمـا ترك ﷺ ما أمره الله به، لكن ذلـك ممّـا رآه مصـلحة لـدفع الـنزاع

[1]) نقله ابن حجر في الفتح (1/252).

[2]) النووي في شرح مسلم (11/132).

في خلافة أبي بكر، ورأى أن الخلاف لا بدّ أن يقع، وقد سأل ربّه لأمّته ثلاثاً فأعطاه اثنتين، ومنعه واحدة، سأله أن لا يهلكهم بسنة عامة، فأعطاه إياها، وسأله أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم، فأعطاه إياها، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعه إياها، وهذا ثبت في الصحيح) [1]

ثم قال معقبا على قول ابن ابن عباس: (الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب الكتاب): (فإنّها رزية أي مصيبة في حقّ الذين شكوا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وطعنوا فيها، وابن عباس قال ذلك لمّا ظهر أهل الأهواء من الخوارج والروافض ونحوهم، وإلّا فابن عباس كان يفتي بما في كتاب الله، فإن فلم يجد في كتاب الله فبما في سنّة رسول الله، فإن لم يجد في سنّة رسول الله ﷺ فبما أفتى أبو بكر وعمر، ثمّ إنّ النبي ﷺ ترك كتابة الكتاب باختياره، فلم يكن في ذلك نزاع، ولو استّمر على إرادة الكتاب ما قدر أحد أن يمنعه)[2]

هذا هو موقف أهل السنة المذهبية من كتابة رسول الله ﷺ لوصيته في مرض موته، ولكن موقفهم يختلف تماما مع أصحابه الذين أحلوهم من المنزلة ما لم يحلوا رسول الله ﷺ.. بل أجازوا لهم ما لم يجيزوا له..

ولهذا نرى أهل هذه السنة يذكرون بإعجاب موقف أبي بكر في مرض موته عند وصيته لعمر، ويعتبرون ذلك من حرص أبي بكر على الأمة من بعده، ورحمته بها، مع أن الحالة التي أملى فيها أبو بكر وصيته أخطر من الحالة التي كان فيها رسول الله ﷺ.

فقد روى الطبري في تاريخه، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن سعد في الطبقات، وابن حبّان في الثقات: (دعا أبو بكر عثمان خالياً فقال له: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين: أمّا بعد.. قال: ثمّ أغمي عليه، فذهب عنه، فكتب عثمان: أمّا بعد: فإنّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً منه. ثمّ أفاق أبو بكر فقال: أقرأ عليَّ. فقرأ عليه، فكبّر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن أفتتلت نفسي في غشيتي! قال: نعم! قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. وأقرها أبو بكر رضي الله عنه

---

[1] منهاج السنة (6/315-318).

[2] منهاج السنة (6/315-318).

من هذا الموضع)[1]

وهكذا نجدهم يروون عن أم المؤمنين عائشة قولها مخاطبه عبدالله بن عمر: (يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملاً ، فإني أخشى عليهم الفتنة)[2]

---

[1]) تاريخ الطبري 2:ـ 618. تاريخ مدينة دمشق 3:ـ 411. الطبقات الكبرى 3: 200. الثقات 2: 192..

[2]) الاِمامة والسياسة: 1 | 28..

رسول الله .. والشياطين

مع أن في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تبين ضعف الشيطان أمام عباد الله المخلصين سواء كانوا أنبياء أو غير أنبياء، مع ذكر النماذج التطبيقية على ذلك إلا أننا نجد في تراثنا الحديثي، وما تبعه من الفهم السلفي صورة لرسول الله ﷺ، وهو يقف ضعيفا أمام الشيطان، حتى أنه يتسلط عليه في أخطر ما ندب إليه، وهو تبليغه للقرآن الكريم.

بل نجد الشيطان الرجيم يفر من أصحابه، ويخاف منهم، ويسلك خلاف مسالكهم، بينما لا يستشعر أي خوف منه ﷺ.. مع أن الشيطان لا يعظم خوفه إلا ممن قويت صلتهم بالله، وعظم قربهم منه، وكثر ذكرهم له.

بل إنهم يصورون أن رسول الله ﷺ كان من الضعف أمام الشيطان بحيث كان كل حين يحتاج إلى عملية جراحية خاصة لتخرج منه الشريحة التي يتصل الشيطان من خلالها بقلبه.

بل إنهم يصورون أن الشيطان يتسلط على رسول الله ﷺ كل حين، فيسب ويشتم ويلعن من لا يستحق السب ولا الشتم ولا اللعن.. ولذلك وجد مخرجا أو حيلة لذلك بتحويل كل سبابه ولعناته وشتائمه إلى رحمة إلهية.

هذا الكلام الخطير الذي نقوله ليس دعاوى.. ولا مجرد اتهامات لا أساس لها.. وإنما هو وللأسف الشديد ـ مما يمتلئ به تراثنا الحديثي، بل أصبح إنكاره أو نقده نوعا من البدعة .. بل يهدد منكره من الطرد من الفرقة الناجية، ومن السنة والجماعة..

ولإثبات ذلك نبدأ بعلاقة الشيطان برسول الله ﷺ في أوائل حياته قبل النبوة.. والتي اتفق الجميع ـ حتى المشركون أنفسهم ـ أنها كانت ممتلئة بالصدق والطهارة وحسن الخلق.. ولكن الفرق بين تفسير قومه ﷺ لذلك وتفسير أهل السنة المذهبية لذلك مختلف تماما.

أما تفسير قومه لذلك، وهو تفسير بديهي عقلي منطقي، فهو أنه ﷺ بطبعه وجبلته كان كذلك.. ولذلك آمن الصادقون من قومه بمجرد إخباره ﷺ بنبوته، لأن كل ما فيه يدل عليه..

والعقل يؤيد هذا، لأن الله سبحانه وتعالى صاحب العدالة المطلقة لا يحابي أحدا، ولا يجامل أحدا، ولا يعطي أحدا ما لا يستحق، كما قال تعالى: الله ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

[الأنعام: 124]

لكن التفسير المذهبي لذلك يختلف تماما، فقد تصوروا أن رسول الله ﷺ لم يكن كذلك بطبعه، ولا بقدرته على مواجهة تلك البيئة الممتلئة بالانحرافات، وإنما واجهها لأن الله تعالى خصه من دون الناس بأن نزع حظ الشيطان منه، أو بتعبيرنا المعاصر: نزع الشريحة التي يقوم الشيطان من خلالها بالتواصل معه.

ولسنا ندري كيف نثبت لرسول الله ﷺ كل تلك الكمالات، ونحن نقول بهذا، لأن القول بهذا وحده كاف لإخراج رسول الله ﷺ من مضمار السباق الذي جعله الله بين عباده ليرى أحسنهم عملا.. لأن رسول الله ﷺ بهذا الاعتبار يشبه ذلك العداء الكسول المحتال الذي يتحدى غيره أن يلحقوا به وهو يستعمل المنشطات..

ثم بعد القول بهذا كيف يأمرنا الله تعالى باتخاذه أسوة، لأن أي شخص من الناس يمكنه أن يقول: يا رب.. كيف تأمرنا بالاقتداء برجل قد أجريب له عملية نزعت من الشيطان القدرة على التأثير فيه، بينما لم تجر لنا نفس العملية.. فكيف يمكننا أن نتأسى برجل أوتي ما لم نؤت؟

وقبل أن نناقش هذا نورد الروايات الواردة، وموقف أهل السنة المذهبية منها، ثم نبين مدى مطابقتها للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة.

فمن الروايات الواردة في هذا عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يلعب مع الصبيان، فأتاه آت، فأخذه فشق بطنه، فاستخرج منه علقة، فرمى بها، وقال: هذه نصيب الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهب، من ماء زمزم، ثم لأمه، فأقبل الصبيان إلى ظئره: قتل محمد، قتل محمد، فاستقبلت رسول الله ﷺ وقد انتقع لونه. قال أنس: فلقد كنا نرى أثر المخيط في صدره)[1]

هذا هو المحل الأول للشق، أما المحل الثاني، فرواه قتادة عن أنس في حديث الإسراء والمعراج وفيه: (فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيمانا، فشق من النحر إلى مراق البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم مليء حكمة وإيمانا ... الحديث)[2]

وهناك محل ثالث رواه أبو نعيم الأصبهاني، وذكر أنه عند البعثة، وأيده ابن حجر حيث قال: (بل ثلاث مرات، فقد ثبت أيضا

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، ولكل حكمة)[3]

ثم بين الحكم المرتبطة بكل حادثة، فـذكر أن الأول كـان في زمن الطفولـــة، لينشـــأ على أكمـــل الأحـــوال من العصـــمة من الشيطان، ثم عند البعث زيادة في إكرامـه ليتلقى مـا يـوحى اليـه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم عند الاسراء ليتأهب للمناجاة.

ومن الروايات الواردة في هذا، والتي توضح حقيقة مـا جـرى بعض التفصيل ـ بحسب ما يـراه أصـحاب السـنة المذهبيـة ــ مـا رواه أبو نعيم في (دلائل النبوة) عن أبي هريـرة أنـه سـأل رسـول الله ﷺ وكان حريصا أن يسأله عن الذي لا يسأله غـيره، فقـال: يـا رسول الله ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة ؟ فقال: إذ سألتني إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحـدهما لصـاحبه: أهـو هـو ؟ قـال: نعم فأخـذاني فلصـقاني بحلاوة القفا ثم شقا بطني فكان جبريل يختلف بالماء في طســت من ذهب وكان ميكائيل يغسل جوفي فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره فإذا صدري فيما أرى مفلوقا لا أجد له وجعا ثم قال: اشقق قلبه فشق قلـبي فقـال: أخـرج الغـل والحسـد منـه فـأخرج شـبه العلقة فنبذه ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة في قلبه فأدخـل شـيئا كهيئة الفضة، ثم أخرج ذرورا كان معه، فذر عليه، ثم نقر إبهـامي، ثم قـال: اغـد فـرجعت بمـا لم أغـد بـه من رحمـتي على الصـغير ورقتي على الكبير.

وهذا الحديث عجيب، ومتناقض تماما مع سنة الله تعـالى في اختبار عباده.. فإذا كان الغل والحسد والقسوة والغلظة مـرتبطين بخلايا أو أنسجة موجودة في الجسم، فلم لا يريح الله عبـاده منهـا بإتاحة مثل هذه العمليات لهم؟

فإن قيـل: إن التكليـف والابتلاء يسـتلزمان وجـود كـل ذلـك.. فكيف خص رسول الله ﷺ بذلك دون سائر الناس؟ وكيـف اعتـبره القرآن الكريم رسول اللـه ﷺ صـاحب خلـق عظيم مـع أن الخلـق العظيم الذي حصل له لم يبذل فيه أي جهد، ولم يعـان في سـبيل تحصيله أي عنـاء، بـل الفضـل للملائكـة الـذين طهـروره من تلـك الأدواء، ووضعوا بدلها الرأفة والرحمة كما ورد في الرواية.

وإذا كـــان الأمـــر كمـــا قـــالوا، فلم ورد في القـــرآن الكـــريم التهديدات الشديدة لرسول الله ﷺ إن لم يلتزم بـأوامر اللـه مثلـه

---

[3] فتح الباري لابن حجر (7/ 204)

مثل سائر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)﴾ [الحاقة: 44 - 47]

وإذا كان الأمر كما قالوا، فلم كان رسول الله ﷺ أشد الناس خشية لله، ففي الحديث قال ﷺ: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله تعالى، وأشدهم له خشية)[1] .. أم أن تلك الخشية أيضا قد غرست في صدره ﷺ مع ما غرس من الرأفة والرحمة؟

نطرح هذه الأسئلة وغيرها، ونحن نتألم ألما شديدا أن يتعرض رسول الله ﷺ لمثل هذه الإهانات، وهذا التحقير، بحيث يصبح مغلوبا على أمره، لولا أن ينقذه الله بإخراج حظ الشيطان منه..

ومع تلك العمليات التي يصورها أرباب السنة المذهبية لرسول الله ﷺ بغية استنقاذه من الشيطان إلا أن الشيطان كان يتسلط عليه ـ كما يروون ـ كل حين، فقد رووا أن النبي ﷺ قال: (إن جبريل أتاني، فقال: إن عفريتا من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي)[2]

ورووا أن رسول الله ﷺ قال: (لقد أتاني شيطان فنازعني، ثم نازعني، فأخذت بحلقه، فوالذي بعثني بالحق، ما أرسلته حتى وجدت برد لسانه على يدي، ولولا دعوة سليمان لأصبح طريحا في المسجد)[3]

ورووا أن رسول الله ﷺ قال: (دخلتُ البيتَ فإذا شيطانٌ خلف البابِ فخنقته حتى وجدتُ برد لسانه على يدي، فلولا دعوةُ العبدِ الصالحِ لأصبحَ مربوطاً يراه الناسُ)[4]

وقد نسي من رووا هذه الأحاديث، وراحوا يشوهون بها شخص رسول الله ﷺ تلك الآيات الكثيرة التي يقرر فيها القرآن الكريم أنه لا سلطان للشيطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا

---

[1]) رواه البخاري في الأدب المفرد.

[2]) ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان.

[3]) رواه ابن أبي الدنيا.

[4]) رواه الطبراني في (الأوسط)

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)﴾ [النحل: 98 - 100]

بل يذكر القرآن الكريم على لسان الشيطان نفسه أنه لا يستطيع أن يقترب مجرد الاقتراب من عباد الله المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم: 22]

فإذا كان الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئا مع هؤلاء، فكيف يستطيع أن يتصارع مع رسول الله ﷺ، بل كيف يستطيع أن يقترب منه مجرد اقتراب مع أن الله تعالى ذكر أنه يخنس من الذين آمنوا بمجرد ذكرهم لله.. وهل كان رسول الله ﷺ يغفل عن ذكر الله طرفة عين؟

وهل كان أولئك المخلصين من الصديقين والأنبياء والصالحين أعظم مكانة من رسول الله ﷺ حيث استطاعوا الانفلات منه في نفس الوقت الذي سلط فيه الشيطان عليه؟

بل إن السنة المذهبية تذهب إلى أبعد من ذلك حين تصور أن الشيطان الرجيم يخاف من بعض صحابة رسول الله ﷺ، ولا يخاف من رسول الله ﷺ نفسه، ففي الحديث الذي رواه الترمذي وصححه الألباني عن أبي بريدة عن أبيه، قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء، فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها رسول الله ﷺ: (إن كنت نذرت فاضربي، وإلا فلا)، فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت استها، ثم قعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان ليخاف منك يا عمر، إني كنت جالسا وهي تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف)[1]

وهنا يستبشر أصحاب السنة المذهبية، ويكبرون فرحين مبتهجين بأن الشيطان يخاف من عمر.. وينسون أن عمر والصحابة جميعا، بل كل الدنيا لا تساوي شيئا أمام رسول الله ﷺ.. فكيف يخاف الشيطان في مجلس من عمر، ولا يخاف من

---

[1]) رواه الترمذي.

رسول الله ﷺ؟

وليتركوا الحديث ورواية الترمذي له وتصحيح الألباني، وليعودوا إلى عقولهم قليلا، وليسألوها عن حقيقة الشيطان، وعن دوره في الأرض، ثم عن أكثر الناس ترويعا له ومضادة لمشروعه.. أليس هو رسول الله ﷺ؟

أليس رسول الله هو المنتدب من العناية الإلهية ليحطم المشروع الذي أقسم الشيطان على أن يفعله ببني آدم ليزج بهم معه في دركات جهنم؟

ولكن أصحاب السنة المذهبية لا يهتمون بالإجابة على هذه التساؤلات لأنها لا تخطر على بالهم أصلا.. وإن سألهم أحد من الناس، فما أسهل أن يجيبوه بما تعودوا أن يجيبوا به مخالفوهم من التبديع والتضليل والتكفير.

والسنة المذهبية لا تكتفي بهذا التشويه والاحتقار لرسول الله ﷺ في مواجهة الشيطان، بل هي تصور أن رسول الله ﷺ، وبعد أن عاين ملاك الوحي، ونزل عليه من القرآن الكريم ما نزل بقي في شك من أمره، وهل كان من نزل عليه ملاك أم شيطان، ولولا أن زوجته ـ كما تذكر الرواية ـ احتالت لذلك حيلة، لبقي رسول الله ﷺ في شكه وريبته.

فقد روى أصحاب السنة المذهبية أن خديجة قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي نفسي بيده إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فأخبرني به. فجاءه جبريل فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة هذا جبريل قد جاءني فقالت: قم يا بن عمي فاجلس على فخذي اليسرى. فقام رسول اللّه ﷺ فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى فتحول رسول اللّه ﷺ فجلس على فخذها اليمنى فقالت: هل تراه؟ قال نعم. فحسرت فألقت خمارها ورسول اللّه ﷺ جالس في حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت يا بن عم اثبت وأبشر فواللّه إنه لملك ما هذا شيطان[1].

بل رووا أن رسول الله ﷺ مع ما عاينه من أمر الله في غار حراء، بقي في شك من أمره، وخشي أن يكون ما حصل له مسا من الشيطان، لولا أن طمأنه ورقة بن نوفل..

وهكذا تحط السنة المذهبية من قدر رسول الله ﷺ لتجعله

---

[1]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط.

فريسة للشكوك والشياطين لولا أن يخلصه منها بشـر من النـاس ما نالوا فضلهم إلا برؤيته وصحبته والتعلم على يديه ونيل بركته.

ولم تكتف السنة المذهبية بهذا، بل ذهبت إلى أبعـد من ذلـك حين صـورت أن الشـيطان اسـتطاع بقدراتـه الخارقـة أن يخـترق رسول الله ﷺ، وهو يقرأ كلام ربه، ليجعـل رسـول اللـه ﷺ ينطـق بكلام الشيطان بدل كلام ربه.. ولست أدري كيف أطـاق ذلـك مـع أن اللـه تعـالى يـذكر في القـرآن الكـريم أن سـلطان الشـيطان الوحيد على الإنسان قاصر على الوسوسة.

والرواية التي تذكر هذا هي التي تسمى قصة الغرانيـق، وهي الـتي تلقفهـا المستشـرقون والمبشـرون وبنـوا عليهـا جـدرا من الأباطيل، والعيب ليس فيهم، ولكن العيب فيمن يـدعي أنـه ينتمي لرسول الله ﷺ، ثم يقبل مثل تلك الرواية أو يرويها أو يحـاول كـل جهده أن ينتصر لها.

ومن أعظم هـؤلاء الـذين انتصـورا لهـا شـيخ إسـلام السـنة المذهبية ابن تيمية الـذي انتصـر لهـا في مواضـع كثـيرة من كتبـه، بطرق مختلفة..

وقبـل أن نـذكر كلام ابن تيميـة في المسـألة، والـذي تلقفـه تلاميذه كـالقرآن المـوحى، نـذكر الروايـة، فعن أبي العاليـة، قـال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنما جلساؤك عبد بـني فلان ومـولى بني فلان، فلو ذكرت آلهتنا بشيء جالسـناك، فإنـه يأتيـك أشـراف العرب فـإذا رأوا جلسـاءك أشـراف قومـك كـان أرغب لهم فيـك، قال: فألقى الشيطان في أمنيته، فنزلت هذه الآية: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال: فأجرى الشـيطان على لسـانه: تلـك الغرانيـق العلى، وشـفاعتهن تـرجى، مثلهن لا ينسـى؛ قـال: فسجد النـبي حين قرأهـا، وسـجد معـه المسـلمون والمشـركون؛ فلما علم الذي أجـرى على لسـانه، كـبر ذلـك عليـه، فـأنزل اللـه: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَـا يُلْقِي الشَّـيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: 52][1]

وكعادة ابن تيمية في مثـل هـذه المسـائل فإنـه يبـدأها عـادة بتهوينهـا، وذكـر الخلاف فيهـا، ثم ببيـان أن السـلف الـذين هم المتحدث الرسـمي باسـم الـدين يـرون رأيـا معينـا، ثم يجتهـد في الانتصار لهم.. ثم يختم ذلك بتبديع وتضليل من خالفهم.. وقد يذكر

[1] تفسير الطبري (18/ 664)

ذلك التبديع والتضيل في المحل نفسه، وقد يؤجله لمحل آخر..

وسنورد بعض أقواله هنا تاركين للقارئ أن يكتشـف المنطـق الذي يفكر به أصحاب السـنة المذهبيـة، والصـورة الـتي يحملونهـا عن رسول الله ﷺ.

قال ابن تيمية: (النـبي هـو المنـبئ عن اللـه، والرسـول هـو الذي أرسله الله تعالى، وكل رسول نـبي وليس كـل نـبي رسـولا، والعصـمة فيمـا يبلغونـه عن اللـه ثابتـة فلا يسـتقر في ذلـك خطـأ باتفاق المسلمين.. ولكن هل يصدر مـا يسـتدركه اللـه فينسـخ مـا يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ؟ هـذا فيـه قـولان: والمـأثور عن السلف يوافق القرآن بـذلك.. والـذين منعـوا ذلـك من المتـأخرين طعنـوا فيمـا ينقـل من الزيـادة في سـورة النجم بقولـه: (تلـك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)، وقالوا: إن هـذا لم يثبت، ومن علم أنه ثبت: قـال هـذا ألقـاه الشـيطان في مسـامعهم ولم يلفـظ بـه الرسـول، ولكن السـؤال وارد على هـذا التقـدير أيضـا، وقالوا في قوله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ﴾ [الحج: 52] هـو حـديث النفس، وأمـا الـذين قـرروا مـا نقـل عن السـلف فقـالوا هـذا منقـول نقلا ثابتـا لا يمكن القـدح فيـه والقـرآن يـدل عليه .. فقالوا الآثار في تفسير هـذه الآيـة معروفـة ثابتـة في كتب التفسير، والحديث، والقرآن يوافق ذلك فإن نسـخ اللـه لمـا يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقـع في آياتـه، وتمييـز الحـق من الباطـل حـتى لا تختلـط آياتـه بغيرهـا، وجعـل مـا ألقى الشيطان فتنة للـذين في قلـوبهم مـرض، والقاسـية قلـوبهم إنمـا يكـون إذا كـان ذلـك ظـاهرا يسـمعه النـاس لا باطنـا في النفس والفتنة التي تحصل بهـذا النـوع من النسـخ من جنس الفتنـة الـتي تحصل بالنوع الآخر من النسخ)[1]

وقال في (منهاج السنة النبوية)، أو على الأصح (منهاج السنة المذهبية): (وما جرى في (سورة النجم). من قوله تلـك الغرانيـق العلي وإن شفاعتها لترتجى على المشـهور عنـد السـلف والخلـف من أن ذلك جرى على لسانه ثم نسخه الله وأبطله)[2]

وقد وافقه على هذا أكثر سلفية العصر، فقد قال سليمان آل شيخ في تيسـير العزيـز الحميـد عن قصـة الغرانيـق: (وهي قصـة مشهورة صـحيحة رويت عن ابن عبـاس من طـرق بعضـها صـحيح

[1]) مجموع الفتاوى (10/ 292)

[2]) منهاج السنة النبوية (2/ 409)

ورويت عن جماعــة من التــابعين بأســانيد صــحيحة منهم عــروة وسعيد بن جبـير وأبـو العاليـة وأبـو بكـر بن عبـدالرحمن وعكرمـة والضــحاك وقتــادة ومحمــد بن كعب القــرظي ومحمــد بن قيس والسدي وغيرهم وذكرهـا أيضـا أهـل السـير وغـيرهم وأصـلها في الصحيحين والمقصود منها قوله تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لــترتجى فـإن الغرانيــق هي الملائكــة على قــول وعلى آخــر هي الأصنام)[1]

---

[1]) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: ص219..

رسول الله .. والسحرة

لم يكتف أصحاب السنة المذهبية ببيان ضعف رسول اللـه ﷺ أمام الشياطين، وتسلطهم عليه، بل أضافوا إلى ذلك أيضـا ضـعفه أمام السحرة، وتسلطهم عليه إلى درجة أنه قضى مدة ستة أشهر من عمر نبوته المباركة، وهو لا يعي ما يفعل.

ولسـنا نـدري كيـف غـاب على هـؤلاء تلـك الآيـات الكريمـة الكثيرة التي تبين عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ، وأنه لـو كـاده الإنس والجن، فلن يستطيعوا أن يفعلوا له شيئا، كما قـال تعـالى مقـررا ذلك: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَـلْ فَمَـا بَلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]

ولهـذا فـإن كـل ذلـك الأسـطول من المشـركين والمنـافقين واليهود ومرضى القلوب لم يستطيعوا ـ مع كيدهم المتواصل ــ أن يفعلوا شيئا لرسول الله ﷺ.

وليت الذين اتهموا السحرة بالقدرة على النفـوذ إلى المحـال المقدسـة للإدراك عنـد رسـول اللـه ﷺ اكتفـوا بالصـراع مـع تلـك الآيات الكريمة التي تعد بحفظ رسول الله ﷺ من كل سوء.. لأنهم قد يجدون بعض المنافذ والتبريرات الـتي تجعلهم يعطلـون معناهـا أو يؤولونه..

لكن المشكلة أنهم يعطلون نصوصا قرآنيـة صـريحة تنفي أن يكون رسول الله ﷺ ساحرا، أو مسـحورا، أو واقعـا تحت تـأثير أي سحر أو عين أو أي قوة غيبية غير القوة الإلهية.

بـل إن اللـه تعـالى يخـبر أن ادعـاء السـحر، وربـط أي أمـر بالسحر من شأن الكفـرة، لا من هـذه الأمـة فقـط، بـل من الأمم جميعا..

فالله تعالى يذكر عن موسى عليه السلام أنه لما جـاء قومـه بما جاءهم به من آيات الله البينات اتهمـوه بالسـحر، قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [النمل: 13]

ومثله المسيح عليه السلام الـذي جـاء بالبينـات لكن مرضـى القلوب لم يروها آيات من اللـه، بـل رأوهـا خـوارق من السـحرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّـرًا بِرَسُـولٍ يَـأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِـحْرٌ مُبِينٌ﴾

[الصف: 6]
وهكـذا كـان الأمـر مـع نبينـا ﷺ الـذي بـادره قومـه بالاتهـام بالسحر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَـاسٍ فَلَمَسُـوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام: 7]
وقـال ــ يرسـم مشـهدا من مشـاهد المواجهـة بين دين اللـه ودين الشياطين ـ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَـالُوا مَـا هَـذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَـا هَـذَا إِلَّا إِفْـكٌ مُفْتَـرًى وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلْحَـقِّ لَمَّا جَـاءَهُمْ إِنْ هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [سبأ: 43]
ولم يقتصر الأمر على دعوى السحر التي تجعـل رسـول اللـه ﷺ فـاعلا ومـؤثرا، بـل ورد في النصـوص المقدسـة بيـان اتهـام المحـاربين للنبـوة للنـبي ﷺ بأنـه كـان خاضـعا لتـأثير السـحرة والسـحرة، قـال تعـالى مخـبرا عن موقـف المشـركين من دعـوة رسول الله ﷺ:﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْـوَى إِذْ يَقُـولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْـحُورًا ﴾ [الإسراء: 47]
وقد أخبر القرآن الكريم أن ذلك لم يكن خاصـا برسـول اللـه ﷺ، بل إن سائر الأنبياء اتهمـوا أيضـا بـأنهم كـانوا خاضـعين لتـأثير السحرة، قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَـا مُوسَـى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَـالَ لَـهُ فِرْعَـوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: 101]
ولكن مع كل هذه الآيات المقدسة التي تبرئ رسـول اللـه ﷺ كما تبرئ الأنبياء قبله من الارتباط بالسحر تـأثيرا وتـأثرا نجـد تلـك الروايات العجيبة التي تتـدنس بهـا كتب الحـديث، والـتي تـذكر أن رسول الله ﷺ وقع في فترة مهمة من حياته تحت تأثير السـحرة.. وبــذلك تــبرئ تلــك الأحــاديث ـــ من حيث لا يشــعر أصــحابها ـ المشـركين واليهـود والمنـافقين من تلـك الادعـاءات الـتي كـانوا يرفضون القرآن والدين على أساسها.
وسنورد هنا نص الرواية، ونرى مبلغ إساءتها لرسول الله ﷺ.. ثم نناقشها بعد ذلك.
والرواية ـ للأسف الشـديد ــ توجـد في أمهـات كتب الحـديث المعتمدة كالبخاري ومسلم وأحمد وابن ماجة والنسـائي والـبيهقي وغيرها، وهذا يرينا كيف استطاع مرضـى القلـوب أن يتسـللوا إلى هذه الدواوين العظيمة، ليبثوا فيها سمومهم، ويشـوهوا من خلالهـا

جمال الدين، وجمال رسوله ﷺ.

ونص الحديث كما ـ في صحيح البخاري في كتـاب الطب عن عائشة ـ قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زُريـق يقـال لـه لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيلُ إليه أنه كـان يفعـل الشيء وما فعله حتى إذا كـان ذات يـوم أو ذات ليلـة وهـو عنـدي لكنه دعا ودعا ثم قال: (يا عائشة أشعرت أن الله قد أفتاني فيمـا استفتيته فيـه؟)، قلت ومـا ذاك يـا رسـول اللـه ؟ فقـال: (أتـاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخـر عنـد رجلي فقـال أحـدهما لصاحبه: ما وجعُ الرجل، فقال: مطبوب (أي مسحور)، قـال: ومن طّبه؟ قال: لبيد بن الأعصـم اليهـودي قـال: في أي شـيء ؟ قـال: في مُشط ومُشـاطَة [أي الشـعر المتسـاقط من الـرأس واللحيـة عند ترجيلهما)، وجُفَّ طلعة ذكر [أي على الغشاء الذي يكون على الطلع]، قال: أين هـو؟ قـال: في بـئر ذي أروان، فـذهب النـبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها، وعليهـا نخـل، ثم رجـع إلى عائشة، فقال: (والله لكأن ماءهـا نُقاعـةُ الجفَّاء ولكـأن نخلهـا رؤوس الشياطين)، قلت: يا رسول الله أفأخرجته؟ قـال: (لا، أمـا أنا فقد عافاني الله وشـفاني، وخشـيت أن أثُـوَر على النـاس منـه شراً)، وأمر بها فدفنت البئر[1].

وفي رواية أخرى عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجـلٌ من اليهود، فاشتكى لـذلك أيامـاً فأتـاه جبريـل فقـال: إن رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عُقداً في بـئر كـذا وكـذا، فأرسل رسـول الله ﷺ فاستخرجها فَحلَّها، فقام رسـول اللـه ﷺ كأنمـا أنْشِـطَ من عِقَلٍ، فما ذكر ذلك لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط)[2] .

بعد إيرادنا لهـاتين الروايـتين الغريبـتين اللـتين تشـوهت بهمـا كتب السـنة، نحب أن نناقش بعض مـا فيهـا على ضـوء العقـل والنقل..

ونبدأ بالحالة نفسها، والتي صور بها الحديث رسول اللـه ﷺ..

---

[1](1) رواه البخاري رقم (5766) في الطب، باب السحر، وباب هل يستخرج السحر، وباب السحر وفي الجهاد باب هل يعفى الذمي إذا سحر، وفي الأدب باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾، ومسلم رقم (2189) في السلام، باب السحر، ورواه أيضاً أحمد والنسائي وابن سعد والحاكم وعبد بن حميد وابن مردويه، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) وغيرهم.

[2](2) رواه النسائي (7/113،112) في تحريم الدم، باب سحرة أهل الكتاب.

وأنـه كـان يخيـل إليـه أنـه فعـل الشـيء ولم يفعلـه .. وهي حالـة خطيرة جـدا بالنسـبة لإنسـان عـادي، فكيـف بنـبي، فكيـف بخـاتم الأنبياء وسيدهم؟

لأن ذلك الشيء الذي يخيل إليه أنه فعلـه وهـو لم يفعلـه قـد يرتبط بتبليـغ الـدين.. وليس في الحـديث مـا ينفي ذلـك .. وبـذلك يكون جزء مهم من الدين لم يصل إلينا بسبب أن رسول الله ﷺ ـ تعالى عن ذلك علوا عظيما ـ كـان قـد تـوهم أنـه بلّغـه مـع أنـه لم يبلغه..

وقد يجادلنا هنا مجادل، كما تعـودوا، ويقـول: لا .. ليس الأمـر كما تظنون .. بل الأمر مرتبط بحياة رسول الله ﷺ العادية .. وهنـا يأتي الجواب القرآني الواضح والدقيق والدال على أن حياة رسول الله ﷺ كلها دعوة وبلاغ عن الله، قال تعـالى: ﴿مَـا ضَـلَّ صَـاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَـا يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوَى (3) إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحَى (4)﴾ [النجم: 2 - 4]

فإن جادلوا في الآية، أو أولوها، فليقرؤوا ما ورد في الحـديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قلت: يا رسـول اللـه اكتب كل ما أسمع منـك؟ قـال: نعم، قلت: في الرضـا والغضـب؟ قال: (نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقا) [1]

فإن جادلوا، وذكروا بأن هـذا النـوع من السـحر انحصـر أثـره في علاقة النبي ﷺ الجسدية مع أزواجه، فكان يخيل إليـه أنـه يـأتي نساءه من غير أن يكون ذلـك حقيقـة، كمـا رووا عن أم المؤمـنين عائشة أنها قالت: (مكث النبي ﷺ كـذا وكـذا يخيـل إليـه أنـه يـأتي أهله، ولا يأتي) [2]، فذلك لا يقل عجبا، لأنه يضع رسول اللـه ﷺ في موضع تهم خطـيرة يكفي تخيلهـا لنفـور النفس منهـا.. لكن هـؤلاء للأسف إما أنهم لا يعرفون معنى ما يقولون، أو أن صـورة رسـول اللــه ﷺ في خيــالهم لا تختلــف عن صــورة ذلــك الــذي أصــيب بالهلوسة، فصار يتخيل ما لا يكون، ويفعل ما لا يعقل.

ولم يكتف هؤلاء بهذا، بل تصوروا أن رسول الله ﷺ الذي آتاه اللــه من القــدرات الإدراكيــة مــا ينقضــي دونــه العجب لم يعلم بالسـحر طـول تلـك المـدة، حـتى جـاءه ملكـان، وأخـبراه بعـد أن تنصت ﷺ لقولهما..

ولست أدري ماذا يفعلون بقوله تعالى: ﴿مَـا وَدَّعَـكَ رَبُّكَ وَمَـا

---

[1]) رواه الترمذي.

[2]) رواه البخاري.

قَلَى (3) وَلَلْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لَـكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَـوْفَ يُعْطِيـكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 3 ـ 5]، وغيرها من الآيات الكريمة التي وعد الله فيها نبيه ﷺ بألا يتخلى عنـه، وأن يعطيـه كـل مـا يرضـى، وأن يبعد عنه كل ما يؤذيه.

ولست أدري كيف غاب عنهم تلك الآيات الكريمة الـتي تـذكر ما آتى الله أنبيـاءه عليهم الصـلاة والسـلام من معرفـة المغيبـات، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِـهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: 37]

وقال على لسان المسيح عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَـا تَـأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران: 49]

وهكذا ورد في السنة النبوية الكثير من الأحـاديث الـتي تنـبئ عن قدرات الرسول ﷺ الخارقة في هذا المجـال، وهي دليـل على كمالاتـه الكثـيرة، والـتي هي نبـع من فيض إيمانـه وتقـواه، والـتي لأجلها حصلت له تلك العصمة والحفظ الإلهي من أن يتسلط عليه أي متسلط من الإنس أو الجن.

ومن الأمثلة على ذلك ما روي أن رجلا جاء لرسـول اللـه ﷺ، فقال: من أنت؟ قال:(أنا نبي)، قال: وما نبي؟ قال:(رسول الله)، قال: متى تقوم الساعة؟ قـال:(غيب ولا يعلم الغيب الا اللـه)، قال: أرني سيفك، فأعطاه النبي ﷺ سـيفه، فهـزه الرجـل، ثم رده عليه، فقال رسول الله ﷺ:(أمـا انـك لم تكن تسـتطيع ذلـك الـذي أردت)[1] .. وفي روايـة: ثم قـال رسـول اللـه ﷺ:(إن هـذا أقبـل، فقال: آتيه، فاسأله ثم آخذ السيف، فاقتله ثم أغمد السيف)[2]

ومن الأمثلة على ذلك إخباره ﷺ بعض أصحابه بمـا حـدث بـه نفسه من قتله ﷺ، فعن شيبة بن عثمان قال: لما فتح رسول اللـه ﷺ مكـة، قلت: أسـير مـع قـريش إلى هـوازن، بحـنين فعسـى أن اختلطـوا أن أصـيب غـرة من محمـد فـأكون أنـا الـذي قمت بثـأر قريش كلها، وأقـول: لـو لم يبـق من العـرب والعجم أحـد إلا أتبـع محمدا ما أتبعه أبدا، فكنت مرصدا لمـا خـرجت لـه لا يـزداد الأمـر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس، اقتحم رسـول اللـه ﷺ عن بغلته، فدنوت منه، ورفعت سـيفي حـتى كـدت أسـوره، فرفـع لي شواظ من نار كـالبرق كـاد يمحشـني فوضـعت يـدي على بصـري

---

[1]) رواه الحاكم وصححه والطبراني.

[2]) رواه الطبراني.

خوفا عليه فالتفت الي رسول اللـه ﷺ وقـال:(ادن مـني)، فـدنوت فمسح صدري، وقال:(اللهم اعذه من الشيطان) فوالله لهــو من حينئذ أحب الي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب اللـه مـا كـان بي، فقال:(يا شيبة، الذي أراد الله بك خـيرا ممـا أردت بنفسـك؟) ثم حدثني بما اضمرت في نفسي! فقلت: بأبي أشهد أن لا الــه الا الله، وأنك رسول الله، استغفر لي يا رسول الله، قال:(غفـر اللـه لك)[1]

ومن الأمثلة على ذلك ما روي في السـيرة من حـديث عمـير بن وهب لما جاء يريد قتل رسول الله ﷺ، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ سأله: ما جاء بك يا عمير؟ فقال : جئت لهذا الأسـير الـذي في أيديكم فأحسنوا فيه ؛ فقال ﷺ: فما بـال السـيف في عنقـك؟ قـال : قبحهـا اللــه من سـيوف، وهـل أغنت عنـا شـيئا ؟ قـال : اصدقني، ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك، فقال لـه ﷺ: (بل قعدت أنت وصـفوان بن أميـة في الحجـر، فـذكرتما أصـحاب القليب من قريش، ثم قلت : لولا دين علي وعيال عندي لخــرجت حتى أقتـل محمـدا، فتحمّـل لـك صـفوان بـدَيْنك وعيالـك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلـك) ؛ قـال عمـير : أشـهد أنـك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خــبر السماء، وما ينزل عليك من الـوحي، وهـذا أمـر لم يحضـره إلا أنـا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا اللـه، فالحمـد للـه الـذي هداني للإسـلام، وسـاقني هـذا المسـاق، ثم شـهد شـهادة الحـق، فقال رسول اللــه ﷺ: (فقهـوا أخـاكم في دينـه، وأقرئـوه القـرآن، وأطلقوا له أسيره)[2]

وهكذا حمى اللـه تعـالى رسـوله ﷺ من حـوادث كثـيرة كـان يمكن أن تودي به، ولكن الله تعالى أنبأه عنها قبل أن تقـع.. وهـذا ما يوقع أصحاب السنة المذهبية في حرج عظيم.. فكيف يخبر الله نبيه ﷺ عن كل تلك الحوادث، ويخبره مباشـرة عمـا يكـاد لـه، من غير حاجة إلى ملاك أو غـيره.. إلا في حـديث السـحر.. فهـل كـان للسحرة من الكيد والقدرة على التخفي ما لم يستطع رسول الله ﷺ أن يطلع عليه؟

والعجيب أن أصــحاب الســنة المذهبيــة ممن يبــالغون في السحر، وفي تعلم الرقية منه، يـذكرون في كتبهم أن لهم القـدرة

---

[1] رواه ابن سعد وابن عساكر.

[2] سيرة ابن هشام: 1/ 662.

على اكتشــاف الســحر من غــير حاجــة إلى ملائكــة معصــومين يخبرونهم به.. فهل يجدون لأنفسهم من الطاقات للتواصـل بعـالم الغيب أكثر مما كان عليه رسول الله ﷺ.

بل إنهم يذكرون فيها أن السحرة والشـياطين يمتلئـون رعبـا منهم، ومن مشايخهم، وقصة حذاء الإمام أحمد ورعب الشــياطين منهـا معروفـة، وهي ممـا يحـرص أصـحاب السـنة المذهبيـة على ترديده كل حين لبيان منزلة إمامهم أحمد..

فقد جاء في كتاب (طبقـات الحنابلـة) للقاضـي أبي الحسـين بن أبي يعلى الفـراء: أن الإمـام أحمـد بن حنبـل كـان يجلس في مسجده، فأنفذ إليه الخليفة العباسي المتوكل صاحباً لـه يعلمـه أن جارية بها صرع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمــد نعلي خشب بشـراك من خـوص للوضـوء فدفعـه إلى صـاحب لـه، وقال له: امض إلى دار أمير المؤمنين وتجلس عنـد رأس الجاريـة وتقول له، يعني الجن: قال لـك أحمـد: أيمـا أحب إليـك تخـرج من هذه الجارية أو تصفع بهذه النعل سـبعين. فمضـى إليـه، وقـال لـه مثل ما قال الإمـام أحمـد، فقـال لـه المـارد على لسـان الجاريـة: (السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم بـالعراق مـا أقمنـا بـه، إنـه أطـاع اللـه، ومن أطـاع اللـه أطاعـه كـل شـيء)، وخـرج من الجاريـة وهـدأت ورزقت أولاداً، فلمـا مـات أحمـد عاودهـا المـارد، فأنفذ المتوكل إلى صاحبه أبي بكر المروذي وعرفه الحـال، فأخـذ المروذي النعل ومضى إلى الجارية، فكلمه العفريت على لسـانها: لا أخرج من هذه الجارية ولا أطيعك ولا أقبل منك، أحمد بن حنبــل أطاع الله، فأمرنا بطاعته[1].

وإنمـا ذكرنـا هـذه القصـة هنـا لأن أصـحاب السـنة المذهبيـة يتفقون على العلاقة بين السحرة والشياطين، فقـد نصـوا على أن (السـحر بجميـع أنواعـه فيـه اسـتخدام للشـياطين واسـتعانة بهـا، والشياطين لا تخـدم إلا من تقـرب إليهـا بالـذبح، أو بالاسـتغاثة، أو بالاسـتعاذة، ونحـو ذلـك. يعـني أن يصـرف إليهـا شـيئاً من أنـواع العبادة)[2]

والعجيب أنهم ينصـون في هـذه القصـة وفي غيرهـا على أن من أطاع الله لا يضره شيء، وأنه محفوظ بحفـظ اللـه، وأن نعـل الإمـام أحمـد كـانت لهـا كـل تلـك السـلطة والسـطوة على عـالم

---

[1]) طبقات الحنابلة: 1/233.

[2]) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ج 1 / ص 423)

العفاريت.. لكنهم إن جاءوا إلى رسـول اللـه ﷺ هونـوا من شـأنه، وسلطوا عليه كل شيء.. وليتهم فقط اكتفـوا بالتعامـل معـه كمـا تعاملوا مع الإمام أحمد.

بعد هذا نسأل عن مدى تطبيق الأحكام الواردة في الحـديث، والذي بالغ فيه أهل السنة المذهبية أي مبالغة.. وكان في الأصل ـ بدل تلك المبالغات في تبديع منكريه ـ أن يستفيدوا منه عمليا، كما هي عادتهم.. ولكنا نجدهم في هذه الحديث يخالفونه مخالفة تامة، بـل لا يسـتفيدون منـه إلا شـيئا واحـد يضـعونه ضـمن عقائـد أهـل السـنة، وهي أن رسـول اللـه ﷺ يمكن أن يسـحر، وأنـه سـحر بالفعل، وبقي كذلك مدة طويلة.

وللدلالـة على هـذا نـذكر حكمين ـــ يمكن اسـتنتاجهما من الحديث ـ وقد تخلفا تخلفا تاما في الواقع الفقهي لأصحاب السـنة المذهبية:

أمـا **الأول**: فهـو مـا ورد في الحـديث من عـدم التعـرض للسـحرة، لا بقتلهم، ولا باسـتتابتهم، وهـو أمـر مخـالف تمامـا لمـا يقول به أهل السنة المذهبية الذين يرون قتل الساحر، ويتشددون في ذلك..

وسـأنقل لكم هنـا نص خطبـة حماسـية لرجـل دين يفتخـر بتطبيق بلاده لحكم قتل الساحر، ويستند فيها لبعض الآثار الـواردة عن الصحابة في ذلك[1] ..

يقول الخطيب ـ بحماسته التي لا أستطيع تصـويرها ــ: (عبـاد الله: وحكم الساحر القتـل، وقـد جـاء قتـل السـاحر عن ثلاثـة من أصحاب النبي ﷺ وهم: عمـر بن الخطـاب، وحفصـة أمُّ المؤمـنين، وجندب الأزدي رضـي اللـه عنهم أجمعين .. ففي صـحيح البخـاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطـاب رضـي اللـه عنـه: (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)، قال: فقتلنـا ثلاث سـواحر.. وروى الإمام مالـك في موطئـه وعبـد الـرزاق: أن حفصـة زوج النـبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكـانت قـد دبرتهـا، فـأمرت بهـا فقتلت.. وروى البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهـدي قـال: كـان عنـد الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً فعجبنـا فأعـاد رأسـه، فجـاء جنـدب الأزدي فقتله، وفي رواية أنه قال: (إن كان صادقاً فليحيِ نفسه)

وهكذا راح يذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين وغيرهم.. ولسنا ندري كيـف غـاب ذلـك الحـديث الصـحيح عنـه؟..

---

[1]) الخطبة لعبد الرزاق بن عبد المحسن العباد، وهي موجودة على النت.

وهـل كـان رسـول اللـه ﷺ بتركـه السـاحر وعـدم قتلـه لـه ــ في الحديث الذي يعتقد صحته ـ مقصرا؟

واستأنف الخطيب خطبته دون انتباه لسؤالي الذي لم يخطـر على باله أصلا، فقـال: (وقـد اختلـف أهـل العلم في السـاحر هـل يستتاب أو يُقتل بدون استتابة؟ وظـاهر عمـل الصـحابة في الآثـار المتقدمة أنه يُقتل من غـير اسـتتابة. وذكـر أقـوال أهـل العلم في المسألة وأدلة كل قول تجدها مبسوطة في كتب أهـل العلم، ومن أجمع الكتب وأوعبها في هذه المسألة وغيرها من مسائل التوحيـد (كتاب التوحيد) للإمام المجدد والشيخ المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وشروحاته كثيرة ومن أحسنها وأجمعها كتاب (تيسير العزيز الحميد) لحفيـده وتلميـذه الشـيخ سـليمان بن عبد الله رحم الله الجميع وجـزاهم عن الإسـلام والمسـلمين خـير الجزاء)

وبعد أن بـرر هـذا الحكم من الناحيـة العقديـة راح يـبرره من الناحية الواقعية ـ التي غابت ـ حسب لازم قوله ـ عن رسـول اللـه ﷺ ـ : (عبـاد اللـه: إنَّ قتـل السـاحر وإزهـاق روحـه فيـه تخليصٌ للمجتمــع المســلم من أداة شــر وتخــريب وفتــك بالمســلمين، فالسـاحر شـروره كثـيرة وأخطـاره عديـدة وجنايتـه على الإسـلام والمسلمين كبيرة ؛ فهو يشتت رابطة المجتمـع المسـلم ويخلخـل كيانه، ويفرِّق بين الأسر المسـلمة، وينشـر العـداوة والبغضـاء بين المسلمين، ويزعزع أمن المسلمين، ويخرب ديـارهم، وينقلهم إلى الحضيض والهلكة)

بعـد هـذا يثـني الثنـاء العطـر على مملكتـه الـتي طبقت هـذا الحكم الذي قصر رسـول اللـه ﷺ ـ في تصـورهم ــ عن تطبيقـه، فقال: (ولهذا عباد الله فإنَّا من هذا المنبر لنحمد الله تعالى ونثـني عليـه الخـير كلـه على مـا قيَّضـه لحكومـة هـذه البلاد - أيَّدها اللـه وزادهـا من توفيقـه وحرسـها - من تتبُّع لهـؤلاء المفسـدين وقطـع لدابرهم واستئصال لشأفَتهم وشـرورهم. ومن ذلكم مـا تم إعلانـه يـوم الجمعـة الماضـي من قِبـل وزارة الداخليـة من تنفيـذ لحكم القتل في رجل ساحر لممارسته أعمال السـحر والشـعوذة ووجـد في حيازتـه مجموعـة من الكتب الشـركية والخرافيـة، وجـاء في القرار أنه نظراً لما يحدثه السـحر والشـعوذة من أضـرار جسـيمة على الفرد والمجتمـع في الـدين والنفس والمـال والعقـل وأن مـا فعله المدعى عليه فيه ضرر عظيم يستحق العقوبة الصارمة الـتي

تقطع شره وتردع غيره، فقد تقرر الحكم بقتله وصُـدِّق الحكم من هيئة التمييز ومن مجلس القضاء الأعلى بهيئته الدائمة وصدر الأمر السـامي بإنفـاذ مـا تقـرر شـرعاً بحقـه، ونُفِّذ الحكم يـوم الجمعـة الماضي. فلله الحمـد أولاً وآخـراً ولـه الشـكر ظـاهراً وباطنـا على نعمه الجزيلة وآله العظيمة الـتي لا تعـد ولا تحصـى، ونسـأله بمنِّه وكرمه أن يوفـق ولاة الأمـر في هـذه البلاد لكـل خـير وأن يعينهم على تتبع هؤلاء المجرمين وقطع دابر هؤلاء المفسدين)

طبعا ليس لدينا الوسائل التي نتحقق بها من مدى عدالة هـذا الحكم الذي طبق.. ولكنا مع ذلك نستغرب من هؤلاء القوم الـذين يزعمون لأنفسهم السنة.. واحتكارها.. ومع ذلك يتركون مثل ذلـك الحديث الذي لا يستفيدون منه سوى شيئا واحدا، وهـو أن رسـول اللـه ﷺ مـر في فـترة من فـترات حياتـه النبويـة بهـذه التجربـة المريرة، ولم يخرج منها إلا بعد فترة طويلة.

والأمـر الثـاني الـذي نسـتغرب تـرك أهـل السـنة المذهبيـة لتطبيقه مع أن الحديث يدل عليه دلالة صريحة هـو عـدم تخـريبهم للأماكن التي يوجد فيها السحر.. ولذلك يكتفون بإزالة ما يعتبرونـه سحرا، أو يحرقونه، أو يتلفونه، دون إتلاف المحل الذي وضع فيـه، كما قال الشيخ ابن باز: (ينظر فيما فعلـه السـاحر، إذا عـرف أنـه مثلا جعل شيئا من الشَّعر في مكان، أو جعله في أمشــاط، أو في غير ذلك، إذا عرف أنه وضعه في المكان الفلاني أزيل هذا الشيء وأحرق وأتلف فيبطل مفعوله ويزول ما أراده الساحر)[1]

مع أنه قد ورد في الحديث الـوارد في الصـحيحين أن رسـول الله ﷺ أمر بدفن البئر نفسها[2] مع أن الآبار في ذلك الحين كـانت لها قيمتها.. ومع أن البئر ـ كما ورد في الحديث ـ كانت لرجـل من الأنصار.. ومع ذلك يروون أن رسول الله ﷺ أمر بدفنها.

بعد هذه المناقشات نتعجب أن يـرمى المنكـرون لمثـل هـذه الأحـاديث بالبدعـة، مـع أن الفقهـاء وغـيرهم ينكـرون الكثـير من الأحـاديث، ولا يـرون العمـل بهـا، وقـد رأينـا في مقدمـة الكتـاب نموذجا عن موقف مالك وغيره من بعض الأحاديث.. ومـع ذلـك لم يرم مالك ولا غيره بالبدعة.. ولكن إذا تعلق الأمر برسـول اللـه ﷺ وتنزيهه، فإن أهل السـنة المذهبيـة تثـور فيهم الحميـة، ويشـهرون سيوف الحرمان والتبديع والتضليل في وجه من يفعل ذلك حتى لو

[1] مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: (8/144).

[2] رواه البخاري ومسلم.

كانوا أعلاما كبارا لهم حـرمتهم وجلالتهم.. ولكن لحـومهم سـرعان ما تصبح حلالا بمجرد أن يتجرؤوا فينكروا مثل تلك الروايـات الـتي تسيء إلى رسول الله ﷺ..

ولا يمكننا هنا نقل التصريحات التي صرح بها أصـحاب السـنة المذهبية بتبديع كل من تكلم في تلك الأحاديث [1] .. ولذلك نكتفي بذكر بعض أقوال العلماء الذين بُدّعوا وحُذر منهم بسبب مـواقفهم من أمثال تلك النصوص.

وأولهم المفسر الكبير الفخر الرازي الـذي قـال في تفسـيره [مفـاتيح الغيب] عنـد تفسـير المعـوذات في ذكـر سـبب نزولهـا وحديث سحر النبي ﷺ: (قـال القاضـي هـذه روايـة باطلـة ،وكيـف يمكن القـول بصـحتها، واللـه تعـالى يقـول :﴿ وَاللَّـهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائـدة: 67] وقـال: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّـاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: 69] ولأن تجويزه يفضي إلى القـدح في النبـوة ؛ ولأنـه لـو صـح ذلـك لكـان من الـواجب أن يصـلوا إلى ضـرر جميـع الأنبيـاء والصالحين، ولقدروا على تحصـيل الملـك العظيم لأنفسـهم، وكـلُّ ذلك باطلٌ، ولكان الكفار يعيرونـه بأنـه مسـحور. فلـو وقعت هـذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوة، ولحصل فيه - عليـه السلام - ذلك العيب، ومعلوم أن ذلك غير جائز)[2]

ومنهم الفقيه والمفسر الحنفي الكبير أبو بكر الجصاص الذي قال في كتابه [أحكام القـرآن]: (زعمـوا أن النـبي ﷺ سُـحر، وأن السحر عمل فيه حتى أنه يتخيـل أنـه يفعـل الشـيء ولم يفعلـه .. وقد قال الله تعالى مكذباً للكفار فيمـا أدعـوه من ذلـك للنـبي ﷺ: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْـحُورًا﴾ [الفرقـان: 8] .. ومثـل هـذه الأخبـار من وضـع الملحـدين تلعبـاً بالحشـوا الطغـام واستجرار لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبيـاء عليهم السـلام، والقدح فيها)[3]

ومنهم المحدث الكبير جمال الدين القاسمي الـذي لم يمنعـه تخصصه في علم الحديث من إنكار هـذا الحـديث، فقـد قـال: (ولا

---

[1]) من ذلـك قـول النـووى بعـد إيـراده لحـديث السـحر: (وقـد أنكـر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب أنه يحط من مقام النبوة وشرفها ويشكك فيهـا، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع) المنهاج شرح مسـلم 7/430، وانظـر: تأويـل مختلف الحديث ص 164.

[2]) تفسير الرازي مفاتيح الغيب ج32ص172.

[3]) أحكام القرآن: [1: 49].

غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليـه، وإن كـان مخرَّجـاً في الصحاح ؛ وذلك لأنـه ليس كـل مخـرج فيهـا سـالماً من النقـد، سنداً أو معنى، كما يعرفوه الراسخون. على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة)[1]

ومنهم الأستاذ محمـد عبـده الـذي قـال في تفسـيره لسـورة الفلـق:(وقـد رووا هنـا أحـاديث في أن النـبي ﷺ سـحره لبيـد بن الأعصم، وأثّر سحره فيه حتى كـان يخيـل إليـه أنـه يفعـل الشـيء وهـو لا يفعلـه أو يـأتي شـيئًا وهـو لا يأتيـه، وأن اللـه أنبـأه بـذلك وأخرجت مواد السحر من بئر وعوفي ﷺ مما كان نزل به من ذلك ونزلت هـذه السـورة.ولا يخفى أن تـأثير السـحر في نفسـه عليـه السلام حتى يصـل بـه الأمـر إلى أن يظن أنـه يفعـل شـيئًا وهـو لا يفعلـه، ليس من قبيـل تـأثير الأمـراض في الأبـدان، ولا من قبيـل عروض السهو والنسـيان في بعض الأمـور العاديـة، بـل هـو مـاس بالعقل، آخذ بالروح، وهو ممـا يصـدّق قـول المشـركين فيـه: ﴿إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحورًا﴾، وليس المسحور عنـدهم إلا من خولـط في عقله، وخيّل له أن شيئًا يقع وهو لا يقع، فيخيّل إليه أنه يـوحى إليه ولا يوحى إليه. وقد كان كثير من المقلّدين الذين لا يعقلون ما هي النبـوة ومـا يجب لهـا أن الخـبر بتـأثير السـحر في النفس الشريفة قد صح، فيلزم الاعتقاد به، وعـدم التصـديق بـه من بـدع المبتدعين، لأنه ضرب من إنكار السحر، وقـد جـاء القـرآن بصـحة السحر. فـانظر كيـف ينقلب الـدين الصـحيح، والحـق الصـريح في نظر المقلّد بدعة، نعـوذ باللـه، يحتج على ثبـوت السـحر، ويعـرض عن القرآن في نفيه السحر عنـه ﷺ وعـدّه من افـتراء المشـركين عليـه، ويـؤول في هـذه ولا يـؤول في تلـك، مـع أن الـذي قصـده المشركون ظاهر لأنّهم كانوا يقولـون: إن الشـيطان يلابسـه عليـه السـلام، وملابسـة الشـيطان تعـرف بالسـحر عنـدهم وضـرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلى لبيد، فإنه قـد خالـط عقله وإدراكه في زعمهم)[2]

ومن المحـدثين الـذين لم يستسـيغوا حـديث السـحر محمـد رشيد رضا، وقد كـان موقفـه ذلـك سـببا في تـأليف الشـيخ مقبـل الوادعي ـ وهو علم كبير من أعلام السـنة المذهبيـة ــ رسـالة في الدفاع عن سحر النبي ﷺ، سماها (ردود أهل العلم على الطاعنين

[1]) محاسن التأويل (9/ 577).

[2]) مجلة المنار (33/ 33)

في حديث السحر)، ومما جاء في مقدمتها قوله: (إن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الدعوة إلى الله بل ومن الجهاد في سبيل الله بيان عقيدة أهل السنة والجماعة والذّب عنها، وكشف عوار أهل البدع والملحدين والتحذير منهم.. وجزى الله أهل السنة خيرًا فهم من زمن قديم يتصدون لأهل البدع، حتى فضّل بعضهم الرّدّ على أهل البدع على الجهاد في سبيل الله.. وفي هذا الزمن شاع وذاع أن جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده المصري، ومحمد رشيد رضا، من المجددين وأنّهم علماء الفكر الحر، فقام غير واحد من المعاصرين ببيان ضلالهم وأنّهم مجدّدون للضلال وترهات الإعتزال فعلمت حقيقتهم.. فصارت معرفة ضلالهم كلمة إجماع بين أهل السنة، لكن محمد رشيد رضا لم يوفّ حقه واغترّ بعض الناس ببعض كلماته في الردود على بعض أهل البدع، وما يدري أن عنده من البدع والضلال ما يقاربهم.. لذا رأيت أن أكتب هذه الرسالة الموسومة بـ (ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر وبيان بعد محمد رشيد رضا عن السلفية)[1]

[1]) مقدمة الكتاب.

يحاول هذا الكتاب أن يكشف بعض المؤامرات التي حيكت للانحراف بالصورة المقدسة الجميلة لرسول الله ﷺ والتي أمرنا بأن نقتدي بها ونجعلها مثلنا الأعلى.

ذلك أنه تسلل إلى تراثنا، وخاصة كتب الحديث ما يجعل من رسول الله ﷺ شخصا مختلفا تماما عن الشخص الذي صوره القرآن الكريم، وصورته السنة النبوية الصحيحة.

وقد قام بهذه الوظيفة التشويهية الخطيرة أصحاب القلوب المريضة، الذين ذكر القرآن الكريم وجودهم في عهد رسول الله ﷺ، وبين مواقفهم المختلفة من الحقائق والمعجزات الباهرات التي كانوا يرونها رأي العين.. لكنهم لسقمهم لا يبصرونها، لأن عيونهم الممتلئة بالعمش، وأنوفهم المزكومة تحول بينهم وبين إدراك الحقائق كما هي.

والمشكلة التي حصلت بعد ذلك هي تصورنا أن هذا الصنف من الناس قد زال بمجرد وفاة رسول الله ﷺ .. ومن هذه الثغرة الأمنية الخطيرة تسلل هؤلاء ليشوهوا المعاني السامية للدين، فيحولوا سماحته عنفا، وسلامه حربا، وصفاءه كدورة، وسعيه لتحقيق كل القيم النبيلة إلى سعي لحربها والتنفير منها، وقد أعانهم على ذلك انقطاع الوحي الذي كان يكشف خططهم، ويحذر من مؤامراتهم.